

اخترت لك من التراث

مصايد الشيطان وذم الهوى
مختصر

إغاثة اللصّفان

لابن غسانم المقدسي

دراسة وتحقيق



اهداءات ٢٠٠٢

١/ حسين كامل السيد بك فهمي
الاسكندرية

اخترت لك من التراث

مصايد الشيطان وذم الهوى
مختصر

انغاشه اللصقان

لابن غانم المقدسي

٩٢٠ - ١٠٠٤ هـ

دراسة وتحقيق

ابراهيم محمد الجمل

مكتبة القرآن

للطبع والنشر والتوزيع

٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق

القاهرة - ت ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١



جميع الحقوق محفوظة
مكتبة القرآن

دراسة وتقديم

الحمد لله الذي لا إله غيره . وأصلى وأسلم على من لا نبي بعده . صلوات
ربي وتسلياته عليه .. وبعد ...
فقد وجد هذا الكتاب بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٩٩) أخلاق
تيمور) وهو للإمام العالم على بن محمد بن خليل بن محمد بن محمد بن إبراهيم
بن موسى المعروف بابن غانم المقدسي . من علماء القرن العاشر الهجري .

الإسلام في القرن العاشر الهجري

ولد مصنف هذا الكتاب سنة (٩٢٠ هـ) وتوفي سنة (١٠٠٤ هـ) .
كانت الدولة العثمانية التركية أقوى دولة إسلامية في ذلك القرن . وكان على
رأسها في أوله السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح .. وكان ملكاً محباً
للسلم . فوقفت هذه الدولة في عهده عند فتوح أبيه . وقد خرج عليه ابنه سليم
الأول . فانضم إليه جيش الانكشارية . فترك له الحكم سنة ٩١٨ هـ - فقام
السلطان سليم بعد أبيه بالحكم . وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوته وأبنائهم
إلى أن قضى عليهم ، ثم توجه إلى قتال الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية
بفارس . وكان شيعياً علوياً ينتهى نسبه إلى علي بن أبي طالب . فحاربه

السلطان سليم . واستوفى على مدينة تبريز قاعدة ملكه . وانتزع منه العراق وما إليه من البلاد . ثم توجه بعد هذا إلى قتال المالك بمصر . محاربهم حتى أسقط دولتهم سنة ٩٢٣هـ . وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء بني العباس بمصر . وبهذا صار ملوك الدولة العثمانية التركية خلفاء المسلمين بعد أن كانوا ملوكاً على دولتهم فقط . وفاتهم أن الخلافة الإسلامية لا تنعقد بهذا الشكل . وإنما تنعقد بالشورى ومبايعة المسلمين باختيارهم . ثم توفى السلطان سليم سنة ٩٢٦هـ . فخلفه ابنه السلطان سليم الأول القانونى . وفى عهده وصلت هذه الدولة إلى نهاية عظمتها . فاستولت على بلاد العرب والجزر . ووصلت فتوحاتها إلى فينا قاعدة النمسا . واستولت على الجزائر وغيرها من بلاد المغرب . وقد انتهت باستيلائها على تلمسان دولة بنى زيان سنة ٩٥٢هـ . واستولت على اليمن وغيرها من بلاد العرب . وكان لهذا السلطان إصلاحات دينية ومدنية وقد توفى سنة ٩٧٤هـ . فخلفه ابنه سليم الثانى . وكان ضعيفاً لا يتحلى بالصفات التى تمكنه من إدارة هذه المملكة الواسعة . ولكنه كان له وزير محكم هو محمد باشا صقلى . فاعتمد عليه فى تدبير أمور هذه الدولة . وإليه يرجع الفضل فى المحافظة عليها فى عهده .

وفى عهده تم الاستيلاء على مدينة تونس من بلاد المغرب . فانتهت بهذا الدولة الحفصية سنة ٩٨١هـ . وتوثقت العلاقة فى عهد هذا السلطان بين فرنسا والدولة العثمانية التركية . حتى أباح لفرنسا أن ترسل بعوثاً دينية إلى البلاد الإسلامية . فأرسلت إليها كثيراً من هذه البعث . مع أنها كانت تقصد تربية الطوائف المسيحية الموجودة بين المسلمين على الإخلاص لها . وكان لها من

العواقب السيئة الكثير.. وتوفي هذا السلطان سنة ٩٨٢هـ . فخلفه ابنه مراد الثالث . وابتدأ حكمه بعادتهم السيئة فقتل إخوته لثلا ينازعه في الملك . ثم أعلن تحريم شرب الخمر . وكان قد شاع في عهد أبيه . وأفرط فيه الانكشارية . فثاروا عليه . واضطروه إلى إباحته بالمقدار الذي لا يسكر . وفي عهده كانت علاقة الدولة حسنة مع فرنسا والبندقية وإنجلترا . وقد حصلت هذه الدول على كثير من الامتيازات التجارية في بلاد الدولة بسبب هذه العلاقة . وكان لهذه الامتيازات أثر سيئة في القرون بعد هذا القرن ..

وقد وقعت في عهد هذا السلطان حروب كثيرة بينه وبين الدولة الصفوية . فازدادت بها العلاقة سوءاً بينها . وكانت أولى نجس العلاقة من الدول الأوروبية السابقة . وفي عهده أعلنت الفلاح والبغدان وترنسلانيا العصيان على الدولة . وأمكنها بمساعدة ملك النمسا وألمانيا الاستيلاء على مدن كثيرة من هذه البلاد . وكانت وفاة هذا السلطان سنة ١٠٠٣هـ .

وكان للمسلمين في هذا القرن دولتان شرقيتان غير الدولة العثمانية التركية :

أولاهما : الدولة الصفوية ببلاد فارس . وقد أنشأها الشاه إسماعيل ابن الشيخ صفى الدين العلوى الحسى سنة ٩٠٦هـ . واتخذ مدينة تبريز قاعدة له . وقد اتسعت بعد هذا حتى شملت جميع بلاد فارس والعراق العربى وديار بكر . وامتدت من الخليج الفارسى إلى بحر الخزر . وكانت العلاقة سيئة بينها وبين الدولة العثمانية التركية طول هذا القرن . ومن أهم أسباب هذا العداء أن الدولة الصفوية كانت شيعية . والدولة العثمانية التركية كانت سنية .

والثانية : الدولة المغولية ببلاد الهند . وقد أنشأها بابر شاه من نسل تيمور لنك سنة ٩١١ هـ . وكانت وفاته سنة ٩٣٧ هـ . فخلفه ابنه هايون وقد استمر حكمه إلى سنة ٩٦٤ هـ ، فخلفه ابنه أكبرخان إلى سنة ١٠١٤ هـ ، وكان لأكبرخان أفكار جريئة في التجديد خرج في بعضها عن دائرة التجديد الإسلامي .

أما المغرب فقد ظهر ضعفه في هذا القرن ، وكادت بلاده تسقط في يد الأسبانيين والبرتغاليين ، وقد ذهبت فيه دولة بني حفص ودولة بني زيان باستيلاء الدولة العثمانية التركية على تونس والجزائر ، وسقطت فيه بمراكش دولة بني وطاس سنة ٩٥٦ هـ ، وقامت دولة السعديين الحسنية العلوية مكانها ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث يمكنها دفع عدوان أوروبا على المسلمين من هذه الناحية ، وقد خرج على سلطانها بعض أهلها ، واستعانوا عليه بالبرتغاليين ، فلم يقو وحده على حربهم واستنجد بالدولة العثمانية التركية ، فأمرت واليها بطرابلس أن يرسل إليه مددًا من جنوده ، فأرسل إليه مددًا منها ، وكان هذا سنة ٩٨٦ هـ ، فتمكن بهذا المدد من الانتصار على الثائرين ومن ساعدتهم من البرتغاليين ، وقد رجع المدد إلى طرابلس بعد انتصاره عليهم ، وترك مراكش وحدها تعاني ما تعاني من طمع أوروبا فيها .

وبهذا يمكننا أن نحكم بأن المسلمين في هذا القرن كانوا على شىء من القوة ، إذ كانت الدولة العثمانية التركية فيه لا تزال مرهوبة الجانب عند أمم أوروبا .

مصابيد الشيطان وذم أهوى

العِلْمُ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ

ولكن الحالة العلمية بين المسلمين في هذا القرن لم تكن مضاهية لقوتهم . فقد فشا الجهل فيهم إلى الحد الذي سيأتى في شكايه بعضهم ، وكانوا في القرون السابقة يعادون العلوم الفلسفية وحدها ، فأضافوا إليها في هذا القرن معاداة العلوم الأدبية لأن العامية أخذت تطغى عليهم بعد استيلاء الدولة العثمانية التركية على معظم البلاد العربية ، وجعل اللغة التركية هى اللغة الديوانية . ومن شكا من معاداة العلوم الأدبية في هذا القرن صاحب كتاب «العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم» وكان معاصراً للسلطان سليمان القانوني ، فقال مشيراً إلى موضوع كتابه في التاريخ : ولعمري إن ذلك يعد عند الأكثرين من تضييع الأوقات . لأن المعارف عندهم خرافات ، فإننا قد انتهينا إلى زمان يرون الأدب عيباً . ويعدون التضلع من الفنون ذنباً ، وإلى الله الختان . المشتكى من هذا الزمان . قد سل سيف بغيه وعدوانه . على من تولى بالفضائل وتقدم على أقرانه وصوب نبه لكل ذى نبل ظاهر . وشرف باهر ، فالتبس الدر بالزجاج . واشتبه العذب بالأجاج ، وضاع أرباب الألباب ، كالذباب في الضباب ، فصارت المعارف طيف خيال . أو ضيفاً على شرف ارتحال . وضعف أساس العلم وبنائه . وتضعضت أركانه . وخمدت ناره ، وكادت أن تمحى آثاره :

وكان سرير العلم صرحاً محجراً يناغى القباب السبع وهى عظام
متيناً رقيقاً لا يطار غرابه غزيراً منيعاً لا يكاد يرام

يلوح سنا برق الهوى من بروجـه كبرق بدا بين السحاب يشام
فجرت عليها الرامسات ذبولها فخرت عروش فيه ثم دعام
محا الذاريات اليوم آيات حسنه فلم يبق منه آية ووسام

ومن شكا إهمال العلوم الفلسفية في هذا القرن الحكيم داود الأنطاكي
صاحب «التذكرة» في الطب . وكان قد نزل بمصر فقال فيها : ثم هبطت مصر
هبط آدم الجنة . لما وجدتها كما قال أبو الطيب ملاعب جنة . فكأنها مغاني
الشعب . وأنا المعنى فيها بقوله :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

تنبو عن قبول الحكمة فيها طباع الرجال نُبو قيناتهم الحسان لحى شيب
القدال . ثم تمثل :

ما مُقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله به غريب كصالح في ثمود

وقد طعن أهل مصر في عقيدته لاشتغاله بعلوم الفلاسفة . فلما كثر كلام
الناس في اعتقاده ارتحل منها إلى مكة .

جَهْلَةُ الصُّوفِيَّةِ فِي هَذَا الْقَرْنِ

وقد ازداد العلم هواناً في هذا القرن أمام جهلة المتصوفة . حتى ذكر الشعرائي أنه تتلمذ فيه لسبعين شيخاً أمينين . وقال أبو السعود الجارحي ^(١) لفقيه أزهري : متى تصير هاء الفقيه راءً ؟ يعنى أى متى يصير الفقيه فقيراً متصوفاً ؟ لأنها مترادفان في اصطلاحهم . وكان لأبي السعود الجارحي نفوذ كبير في هذا القرن . حتى إن الشكاوى كثيراً ما كانت ترفع إليه . وكان الأمراء يقفون ببابه فلا يأذن لهم . وهو الذى ولى طومان باى على مصر . وكان بركات الخياط ^(٢)

(١) أبو السعود الجارحي : قال الشعرائي عنه في الطبقات الكبرى (١١٢) ط صحيح «وهو من أجل من أخذ عن الشيخ شهاب الدين المرحومى رضى الله عنه . وكانت له في مصر الكرامات الطارقة والتلامذة الكثيرة والقبول التام عند الخالص والعام . والملوك والوزراء . وكانوا يخضرون بين يديه خاضعين وعملوا بأبديته في عمارة زاويته في حبل الطوب والطين وكان كثير المجاهدات . لم يبلغنا عن غيره ما بلغنا عنه في عصره من مجاهداته . وكان ينزل في سرب تحت الأرض من أول ليلة من رمضان فلا يخرج إلا بعد العبد بستة أيام وذلك بوضوء واحد من غير أكل . وأما الماء فكان يشرب منه كل ليلة قدر أوقية وكان رضى الله عنه يقول : إني أبلغ إلى الآن مقام مريد ولكن الله تعالى يستمر من يشاء» اهـ وهذا يوضح انتشار الصوفية والجهالة في هذا العصر .

(٢) بركات الخياط : قال الشعرائي عنه في الطبقات الكبرى عن ط صحيح (١٣٢) : «كان رضى الله عنه من الملامية . وهو شيخ أخى فضل الدين . وشيخ الشيخ رمضان الصائغ الذى بنى له الزاوية وكان رضى الله عنه يلبس الشاش المخطط كعمامة النصارى فيقول له الناس : حشاك يا نصراني . وكان يخطب المضربات المثمنة . وكان رضى الله عنه يقول لمن يخطب له : هات معك فوطه . وإلا يتسخ قماشك من ثياني . وكان مثبناً قديراً لأن كل كلب وجده ميتاً أو قطعاً أو خروفاً باقى به فيضعه داخل الدكان . فكان لا يستطيع أحد أن يجلس عنده . وكان سيدي الشيخ نور الدين المرصفي رضى الله عنه وغيره يرسلون نه الحملات فيضعون له الحجر على حانوته فيعلم بالحاجة فيقبضها ويقول الإسم لطوبه وتعاليل لأمشير نحن نعبد وهؤلاء يأخذون الهدايا منهم» اهـ .

فهل هذا هو الإسلام ؟ كلا وألف كلا .. وإنما فهم هؤلاء الإسلام فهم بأنفسهم فحاربوه وهم يحملون رايته .

من يبالغ الحكام وعلماء الأزهر في اعتقادهم . ومع هذا طلب إليه جماعة من هؤلاء العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة فاعتذر بأنه لم يتعود إقامتها . ثم استجاب لإلحاحهم عليه . وأخذ يتوضأ بماء قدّر نجس . فلما أنكروا عليه أشبعهم طعناً وشتماً . وقد أنكر عليه الولى مرة وضربه بعضاً ، فغضب وأقام ببابه وهو يقول : والله (يا زربون) ما أفارق هذه العتبة حتى أعزلك . فلم يزل مقيماً ببابه حتى ورد عزل السلطان له .

وكان - إبراهيم المواهى - يشرح قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾^(١) فأنكر عليه بعض علماء الأزهر . لأنه يتكلم في الماهية . ولما أقبل على مجلسهم وهو من إخوانه في الطريق أمسكوا عن الكلام معه ، فقال لهم : محمد المغربى . تكلموا حتى أتاكم معكم . فلم يجرؤوا على الكلام ، فقال لهم : نحن أحق بتتزيه الحق منكم - معاشر الفقهاء - . ومن طلب إيضاح ذلك فليتقدم إلى أتاكم معكم ، فسكتوا جميعاً . وأخذ إبراهيم المواهى بيده وخرج فلحقوا به يطلبون رضاه ، وهو ينهرهم ويقول لهم : إن الطريق ليست مجرد كلام كطريقكم . إنما هى طريق ذوق . فمن أراد منكم الذوق فليأت أخليه وأجوعه حتى أقطع قلبه . وأرقه حتى يذوق . وإلا فليكيف عن هذه الطائفة . فإن

(١) محمد كرم الخلوتى : «توفى عام ٨٦هـ . وكان يرمى على الشرعائى فضله للصوفية على تعلم علوم الدين وخاصة الفقه . ووقعت بينه وبين الشرعائى مشادات ولكن الشرعائى كان أرفع نفساً . وأقوى اتكالاً على الله . فسلم من المكروه والأذى من معاصريه وحاسديه» . التراث الروحى فى مصر (١٤٨) للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى ط دار العهد الجديد . ولكن الشرعائى كان قد أصاب بعض الخطأ فى حياته . وإن كان قد دس عليه الكثير فى كتبه . وهذا لا يمنع أنه فقيه زاهد ورع .. ولكل عالم هفوة .

لحومهم سم قاتل . إلى غير هذا مما هو أخرى وأشنع .

وبهذا خضع أكثر علماء هذا القرن لأولئك المتصوفة . ولم ينكر عليهم إلا قليل منهم . وكانت أفكارهم في الغالب من أجل المنافسة على الدنيا . وكان الغالب على المتصوفة أنهم من المتفهمين . لأنهم كانوا أكثر حظاً في الدنيا . وأكثر أتباعاً ومريدين . وكانوا يشاركون المتفهم في علومهم . فأثار هذا المنافسة بين الفريقين ، وقد بلغ من حقد بعض المتفهم على الشعراى المتصوف سنة ٩٧٣هـ أن سعوا في قتله . فلما فشلوا في محاولتهم سعوا في التكيل به والتشهير باسمه . مع أنه كان إلى تصوف أكثر علماً منهم ، وكان صاحب زاوية كبيرة تضم أكثر من مائتين من مريديه وأتباعه .

وكان إنكارهم على جهلة المتصوفة أخف من إنكارهم على المتفهمين منهم . ومن هؤلاء المتصوفة «محمد كريم الخلق» المتوفى سنة ٩٧٦هـ . فقد كان يمثل جهلة المتصوفة في هذا القرن أكبر تمثيل . وكان حريضاً على جهله بمعرفة الدين وأحكامه . ويسخر من شيوخ الطريق المتفهمين في الدين . ومع هذا لم ينكر عليه الخطيب الشربيني^(١) إلا ابتداءه في الذكر باسم الله واقتصاره عليه ، وقال في إنكاره : إنه مبتدأ . ولا بد لكل مبتدأ من خبر ، وهو إنكار ضعيف متهافت . وقد رد عليه بأن القوم كانوا لا يزالون على ذلك في الذكر . والخبر هنا محذوف . وتقديره المعبود أو المطلوب أو الموجود أو نحو ذلك .

(١) الخطيب الشربيني : هو الإمام الفقيه المفسر الورع الزاهد المتسك . له تفسير للقرآن الكريم . وكتب مشهورة في الفقه . وتوفى عام ٩٧٧هـ . ومن كتبه : (شرح الطالبين في فقه الشافعية) .

ولكن الذين كانوا ينكرون على متصوفة هذا القرن كانوا قلة بين العلماء . وكان أكثرهم يدافعون عنهم . ولا سيما من كان يجمع بين التفقه والتصوف كالشعراني^(١) وزين العابدين البكري سنة ٩٩٤هـ^(٢) . وقد كتب البكري رسالة يدافع فيها عن فقراء الطائفة السعدية الذين يكثر من الذكر . حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا تساقطوا على الأرض . واقتصدوا الحس حتى يصيروا كالخشب المسندة . ولا يقووا على النهوض حتى يسارع إليهم نقيب الشيخ . فيدلك أيديهم وأرجلهم . ويطبقهم على بركة شيخه . وكان بعضهم يخرجون من أجسادهم شيئاً ملوناً بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم

(١) الشعراني : (٨٩٨ - ٩٧٣) هـ. يعد الشعراني أشهر أعلام التصوف المصري في القرن العاشر . وقد ترك ثروة صوفية رفيعة في مقدماتها :

١ - الطبقات الكبرى . ٢ - اليواقيت والجواهر . ٣ - الكبريت الأحمر في بيان عقائد الأكاير . ٤ - كتاب المزن . ٥ - الميزان . ٦ - مختصر تذكرة القرطبي .. وغير ذلك .. اتصل الشعراني بأعلام الصوفية في عصره . وتفرج عليه حتى صار علماً من أعلام التصوف المصري في القرن العاشر الهجري . وكان الشعراني يعمل للتوفيق بين الفقه والتصوف أو بين الشريعة والحقيقة كما يقولون . وقد حمل العلماء على الشعراني حملات شديدة واثارت خصومات بينه وبينهم . ولكنه نجح وأصبح زعيماً روحياً وبطلا شعبياً وإماماً صوفياً ..

(٢) البكري : أبو بكر محمد زين العابدين البكري : توفي عام ٩٩٤هـ . وكان مشهوراً بالزهد والورع والصلاح والتقوى . وطارت له شهرة عند الخاصة والعامة . وكان ملحوظ المكانة عند الحكام يداؤونه ويكاتبونه . وللسلطان ساجان القانوني مزيد اعتناء به . حتى إنه أطلق المراتب الخاصة له . ولذريته من بعده . وكذلك فعل شريف مكة . وسلطان فاس . ا. هـ التراث الروحي في مصر (١٤٨) للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي عن بيت الصديق (٧٦ . ٧٧) .

كالعرق من غير جرح أو منفذ له . فادعى البكرى أن هذه كرامة طاهرة وآية ظاهرة . حيث كانت أنوارها مشرقة من سماء نفوس لا تعادل عن اتباع الشريعة . ولا تأوى إلا إلى حصونها المنيع . وإذا ظهرت على من يخلط الطاعة بالعصيان بعض الأحيان . فالكرامة لأستاذ الذي يتسب إليه . ولكن لطهارة قلبه في ذلك الوقت ظهرت عليه . وإني أرى أن هذه أمور تظهر عليهم بحيل لهم فيها . وهم يفعلون أكثر من ذلك بهذه الحيل . ولا يصح أن نتهافت في إثبات الكرامة لمؤلاء الناس إلى ذلك الحد . فنشبتا لهم مع الاعتراف بأنهم من أهل العصيان . ثم ندعى أنها كرامة لأستاذهم . فلا كان الأستاذ الذي يقبل أهل العصيان بين تلاميذه . ولا كانت تلك الطريقة التي يدافع البكرى عن أصحابها مع عصيانهم بهذا الدفاع المتهافت .

ومما هو جدير بالذكر أن الولي يخاف على بكارته فلا يظهرها لأحد . كما تخاف البنت على بكارتها .. وأيضاً .. فالاستقامة خير من ألف ألف كرامة .

السمة العامة :

وبهذا ترى أن العلم قد قل طلابه في هذا العصر . وساد المسلمين حالة الجهل وراء انقيادهم للصوفية وجهالاتها ..

ولذلك اضمحل أهل العلم .. لنيل الصوفية مراكز في الدولة .. وبالتالي

انتشرت المختصرات والمختجات من مطولات الكتب .. لتسهل على الناس سبل العلم وتقربه إلى أذهانهم ..

الكتاب الذى بين أيدينا

والكتاب الذى بين أيدينا «مستخب فى مصائد الشيطان وذم الهوى» دليل ذلك . ونتيجة اضمحلال العلم فى القرن العاشر ..

فقد انتخب العالم ابن غانم المقدسى من كتاب «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لابن القيم الجوزية وهو الأرجح كما هو ظاهر ما انتخبه فى مصائد الشيطان وذم الهوى ..

ولكن الشيخ وقف على بعض الفصول وأطال فيها كالغناء وأعرض عن كثير من فصول مصائد الشيطان . ولا يعيب هذا الكتاب ..

ولذلك فقد رأينا أن نقف على كتاب «إغاثة اللهفان» ونختصر ما لم يذكره المصنف ليكون عملاً مفيداً متكاملًا إن شاء الله .

ابن غانم المقدسي

هو الشيخ على بن محمد بن علي المقدسي الخزرجي الحنفي المعروف بابن غانم ..

قال في البدر الطالع : «قال العصامي هو شمس العلوم والمعارف بدر المفهوم واللطائف . قرة عين أصحاب أبي حنيفة الراقى من معارج التحقيق حقيقة ..

وقال الشيخ عبد الرازق المناوي : هو شيخ الوقت حالاً وعلماً وتحقيقاً وفهماً . وإمام المحققين حقيقة ورسمًا . كانت وفاته سنة ١٠٠٤ أربع وألف»^(١) .

ولد الشيخ ابن غانم المقدسي سنة (٩٢٠هـ) بالقدس ..
والقدس في هذا القرن وما قبله بقرون منزل العلماء . وحلقة العلم والمدارس . وأم التصنيف ..

ومن المنسوبين إلى بيت المقدس : نصر بن ابراهيم أبو الفتح المقدسي . وأبو الحسن محمد بن عوف . وابن سعدان . وابن شكران . وأبو القاسم . وابن الطبري . وأبو الفتح نصر الله اللاذقي . ومحمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني .. وغيرهم»^(٢) .

(١) البدر الطالع بمحاسن القرن السابع للشوكاني . ط دار المعرفة بيروت (٤٩١) .

(٢) بتصرف عن معجم البلدان لياقوت الحموي (١٧٢) ط دار صادر بيروت

أما شيخنا ابن غانم فهو رجل تمرس في العلم .. فاجتهد أعظم اجتهد ..
فحارب البدعة . ووقف على الخرافات يحققها ويرد على منكريها ..
وتراه متمكناً في الحديث ولذا قويت حجته في الاستدلال والبيان .. وتراه
وسطاً في وعظه .. لا يميل إلى التشدد المنفر . أو التفريط المخل ...
لشيخنا كتاب مطبوع يسمى «تفليس إبليس» ونأمل أن نجد له أكثر من
عمل لنقوم بطبعه وتقديمه للناس ...
فالحق أنه لم يخط بالشهرة لغياب أعماله عن أسواق الكتب ...
توفي الشيخ سنة (١٠٠٤هـ) كما تقدم .. فأسكنه الله فسيح جناته ..

* * *

هَذَا الْكِتَاب

هذا كتاب «منتخب في مصائد الشيطان وذم الهوى» (وجد بدار الكتب المصرية تحت رقم «٢٩٩» أخلاق تيمور) غنى في مادته ، جميل في سرده . عظيم في استخراجِه والمصنف عالم فقير هاجم بدع الصوفية . وأنكر عليهم جهالاتهم يقول :

«وهؤلاء قوم رآهم إبليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش فحسن لهم بداياتها فتعجلوا لذة النظرة والصحبة والمحادثة . وعزموا على مغارة النفس في صدها عن الفاحشة فإن صدقوا أو تم لهم ذلك فقد اشتغل القلب الذى ينبغى أن يخلوا فيه بما ينفع في الآخرة بمجاهدة الطبع في كفه عن الفاحشة . وهذا كله جهل وخروج عن آداب الشريعة فإن الله تعالى أمر بغض البصر لأنه طريقه القلب ليسلم القلب لله من شائب يخاف منه . وما مثل هؤلاء إلا كمثل من أقبل إلى سباع في غيضة^(١) متشاغلة عنه لا تراه فأثارها وحار بها فلن يأمن فيما بعد سلامته من جراحه إن لم يهلك» . وقوله :

«فإذا تمكن الطرب من الصوفية في حال رقصهم جذب بعضهم أحد الجلوس ليقوم معه . ولا يجوز على مذهبهم للمجذوب أن يقعد . فإذا قام قام موافقة له . ولا يخفى على عاقل أن كشف الرأس مستقيم . وفيه إسقاط

(١) الغيضة : الغابة . والأجبة . ومجتمع الشجر في مغيض الماء .

مروءة . وترك أدب . وإنما يقع في المناسك متعبداً لله . وذلاً له ومن مذهبيهم كشف الرأس عند الاستغفار وهذه بدعة . تسقط المروءة وتتنافى والوقار ولولا ورود الشرع بكشفه في الإحرام . ما كان له جه .

ذكر تلبس إبليس على كثير من الصوفية أنهم قد أغلقوا على أنفسهم باب النظر إلى النساء والأجانب لبعدهم عن مصاحبتين وعزوفهم عن مخالطتين . واشتغلوا بالتعبد عن النكاح وانقضت صحبة الأحداث لهم على وجه الإرادة . وقصد الزهادة . فأما لهم إبليس إليهم .

وقال :

«وقد مات خلق كثير من سماع الموعظة وغشى عليهم» .

وتراه فقيهاً محدثاً يجيد تخريج الحديث والحكم عليه .. وسرد أقوال السلف .. والسير على نهجهم كما أنه ليس كعلماء القرن العاشر ممن ضعفت نفوسهم ووهنت حججهم .

ولذا فإننا نفخر بأن نقدم للقارئ المسلم هذا الكتاب .. ولقد أتممنا هذا المختصر بتتبع كتاب «إغاثة اللهفان» لابن القيم واختصرنا ما لم يختصره المصنف حتى تعم فائدته . وقمنا بتخريج الأحاديث والآيات . والتراجم وتوضيح ما يجب إيضاحه ..

والله أسأل أن يتقبل العمل خالصاً لوجهه . إنه سميع مجيب الدعاء .

المحقق

استاذكم بسم الله الرحمن الرحيم

ابن غانم المقدسي رضي الله عنه

هذا كتاب مجموع منتخب في مضامير الشيطان وذو الهوى
ولقلب من عمل به دواء شفا

١٠
أحمد بن محمد
٢٩٦



الصفحة الأولى من المخطوطة

وَيَحْيِي عَلَى جَنَاتٍ مَدِينٍ يَا قَتْلَانَا مَا نَذَلُ كَالْقَوْمِ فِي فِيهَا النَّحْسِيُّ
وَلَكِنَّا لَخَشِي مِنَ الْهَلْ تَوَيَّ تَهْفُو إِلَى أَوْطَانِنَا وَنَسِيَلَم
وَأَشَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْعَارِ الْمَشْهُودَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِي الْجَنَّةِ وَكَانُوا يَتَوَّاجِدُونَ
عَلَيْهِ ذَلِكَ وَلَيْسَ يَخْفَوْنَ مِنْ دَفْ وَلَا تَشَاءُ بِهِ كَسَمَاعِ أَهْلِ الْبَيْعِ الْيَوْمَ وَالْجَمَلَةِ
فَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ وَحَدَّثَ أَحَدُ مَنْ هُوَ لَا تَشَاءُ فَقَدْ تَرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَمِيعَ السَّيَادَةِ وَالْتَّابِعِينَ وَقَدْ تَقَدَّرَ قَوْلُهُ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ مَنْ بَعْدِي عَمِلُوا عَلَيْهَا بِالْإِزْوَاجِ وَأَيُّكُمْ أَمْرًا
وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ كُلِّ مَحْدَثٍ بِرِجْعَةٍ وَكُلِّ رِجْعَةٍ صَلَاحٌ لَكَ وَرَفَقْنَا اللَّهُ بِسَلَامٍ
وَأَسْبَغَهُ وَجَنَّبَنَا الْمَجْمُوعَ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَدَا بَطْنِ أَنْهُ جَوَادُ كَوَيْسٍ

وَأَسْبَغَهُ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أَيْضًا لَمْ يَجِزِ إِلَّا لَوَيْه
يَا حَفِيَّ الْلَطْفِ اغْنِنِي
فِي رِقَّتِي هَذَا وَالطُّفْ فِي
بِلَاعُكَ الْخَفِيِّ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكَ مَا يَهْتَمُّ
بِالْزِيَارَةِ وَالْأَخْفَاءِ

مصايد الشيطان وذم الهوى
مختصر

إِغَاثَةُ الْهَفَايَا

لنور الدين علي بن محمد بن خليل بن محمد المعروف بابن غانم المقدسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله وعلى آله وأصحابه والتابعين لكتاب الله وسنة رسول الله ..

الطريقة السليمة لقراءة القرآن :

وأقول أولاً : إن مما يخالف شريعة الله وسنة ورسوله ﷺ ما أورده أهل العلم رضى الله عنهم أجمعين أن من البدع قراءة بعض القارئ القرآن بالتخطيط الفاحش وزيادة الحروف ومراعاة الأنغام من ذلك بما يدخل في القرآن من الحروف الزائدة مما هو مشاهد منهم وهو حرام ، وعلى ولي الأمر زجرهم ومنعهم من ذلك وتعزيزهم واستتابتهم^(١) .

ويسن ترتيل القرآن ، والتأني فيه . والاعتبار . وتزيين الصوت ما لم يخرج عن حد القراءة بالتخطيط ، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفاه فهو حرام عليه . فعلى ذلك قال الشافعي رضى الله عنه : واجب أن يقرأه حدراً وتخزيناً . فالحدرد الإدراج بلا تخطيط . والتخزين : ترقيق الصوت به^(٢) .

(١) التعزيز : التأديب على ذنب لاحق فيه ولا كفارة . وعززه : لامه وضربه أشد الضرب . واستتابهم : أى طلب التوبة منهم والرجوع إلى الله .

(٢) وعلى ذلك يثبت أمانتنا خطأ قراء أيماننا إذا مططوا وزادوا .. وحذفوا .. الخ ، فاقول قُرْآننا إزاء قول الإمام الشافعي ؟.

الغناء في الشرع الإسلامي :

وما ورد في الغناء أنه يجمع شيئين أحدهما : أنه يلهي عن التفكير في عظمة الله سبحانه . والقيام لخدمته . والثاني : أنه يميله إلى اللذات العاجلة . ويدعوه إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح ^(١) . فهو يحث على الزنا . فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح . والزنا أكبر لذات النفس . ولهذا جاء في الحديث : «والغناء رقية الزنا» ^(٢) .

وقد ذكر أبو جعفر الطبري : أن الذي اتخذ الملاحى من ولد فاس رجل يقال له توبال :

اتخذ في زمانه آلات اللهو من المزامير والطبول . والعيدان . فانهمك ولد فاس في اللهو وتناهى خبرهم إلى من بالجبل من نسل شيث فول منهم قوم . وفشت الفاحشة وشرب الخمر ^(٣) .

قال بعضهم : وهذا لأن الالتذاذ بشيء يدعو إلى الالتذاذ بغيره . خصوصاً ما يناسبه . ولما يئس إبليس من المتعبدین أن يسمع أحدهم شيئاً من الأصوات

-
- (١) لأن الغناء إنما يذكر دائماً بمحاسن المرأة أو محاسن الرجل .. إلى جانب الانتقال بالإنسان إلى الترف والانحراف المزاج الذى عنده يفقد بعض أحاسيسه واتزانه .. فيؤدى إلى أن يذكر النكاح ... والمؤمن يجب عليه أن يحافظ على ماء وجهه ويلزمها من آن لآخر طاعة ربها .
- (٢) «الغناء رقية الزنا» ليس حديثاً . وقد أشكل على المصنف في هذا الموضع . ولكن تراه يصحح هذا فيما ساقى بقوله «قال الفضيل بن عياض ... الخ» . فهو من قول الفضيل . وهذا دليل على أن الالتذاذ بشيء يدعو إلى الالتذاذ بغيره .. فالغناء يدعو إلى شرب الخمر .
- (٣) وشرب الخمر يؤدى إلى الزنا بل والقتل .. وهكذا فإن طريق المعاصي يوصل بعضه إلى بعض .. كما أن طريق الطاعات يوصل بعضه إلى بعض ففعل الطاعة يوصل إلى أخرى ويتعذر من معصية ما ..

المحرمة كالعود نظرًا إلى المعنى الحاصل بالعود ، فدرجه في ضمن الغناء بغير العود ، وحسنه لهم وإنما مراده التدرج من شئ إلى شئ والقضية من نظر في الأسباب والنتائج وتأمل المقاصد . وأن النظر إلى الأمر حرام وإن أمن ثوران الشهوة .

قال الإمام النووي ^(١) قلت يحرم النظر إلى الأمر ^(٢) شهوة . وبغير شهوة أما تقبيل الصبية التي لها من العمر ثلاث سنين فجائز إذ لا شهوة تقع هناك في الأغلب ، فإن وجدت شهوة حرم ذلك وكذلك الخلوة بذات المحارم ، فإن خيف من ذلك حرم ، فتأمل هذه القاعدة وقال : تكلم الناس في الغناء فأطالوا ففهم من حرمة ومنهم من أباحه مع الكراهة . وغير ذلك .
وفصل الخطاب أن نقول : ينبغي أن ينظر في ماهية الشئ ثم يطلق التحريم والكراهة أو غير ذلك .

والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيح ^(٣) في الطرقات فإن أقوامًا يقدمون من الأعاجم للحج في الطرقات أشعارًا يصفون فيها الكعبة ، وزمزم ، والمقام وربما ضربوا مع أشعارهم بطبل فسماع تلك الأشعار مباح وليس إنشادهم إياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال .

وفي معنى هؤلاء الغزاة ، فإنهم ينشدون أشعارًا يحرضون بها على الغزو ، وفي معنى هذا إنشاد المتبارزين للقتال للأشعار تفاخرًا عند النزال . وفي معنى هذا

(١) الإمام النووي : فقيه عالم توفي سنة (٦٠٠هـ) صاحب «رياض الصالحين» وشرح مسلم ،

والمجموع على شرح المذهب للشيرازي وغير ذلك .

(٢) الأمر : الشاب طر شاربته ولم تنبت لجنته .

(٣) أى حجاج بيت الله الحرام .

أشعار الحداة في طريق مكة لقول قائلهم :

بشرها ودليلها وقالوا . غداً تَرَيْنِ الطَّلْحَ والجبالا

* وهذا يحرك الإبل والآدمي إلا أن ذلك التحريك لا يوجب الطرب المخرج عن حد الاعتدال . وأصل الحداة ما اتصل إلى طلحة عن بعض علمائهم أن رسول الله ﷺ مال ذات ليلة بطريق مكة إلى حاد مع قوم فسلم عليهم وقال إن حاديننا ونى فسمعنا حاديكم فملت إليكم فهل تدرون كيف كان الحداة ؟ قالوا لا والله قال : إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعائه فوجد إبله قد تفرقت وهو يصيح وايداه وايداه فسمعت الإبل ذلك فعطفت عليه فقال مضر لو اشتق لاندفعت به الأبل واجتمعت فاشتق الحداة فقال القائل قلت . وقد كان لرسول الله ﷺ حاد^(١) يقال له أنجشة^(٢) يحدو فيضرب بالأبل فقال رسول الله ﷺ «يا أنجشة رفقاً بالقوارير^(٣)» .

وفي حديث سلمة بن الأكوع قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع ألا تسمعنا حداةك . وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يحدو بالقوم ويقول :

-
- (١) الحادى : رجل كان ينشد الأبل حتى تسرع في السير : والحدو : سوق الإبل والغناء لها .
 (٢) أنجشة : عبد أسود حسن الصوت كان ينشد لأمهات المؤمنين .
 (٣) القوارير : جمع قارورة وهى الزجاجية ويراد بها النساء لرقتهن ومراعاة ذلك في التعامل معهن برفق . وهذا نص الحديث (يا أنجشة رويدك رفقاً بالقوارير) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والطيالسى .

اللهم لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فألقين سكينه علينا وثبت الأقدام إذ لاقينا

فالحداء ونشيد الأعراب لا بأس به قال قلت : ومن إنشاد العرب قول أهل
المدينة عند قدوم رسول الله ﷺ :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ومن هذا الجنس كانوا ينشدون بالمدينة . وربما ضربوا عليه بالدف عند
إنشاده . ومنه ما هو عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنها دخل
عليها وعندها جارتان في أيام مني تضربان بدفين ورسول الله ﷺ مضطجع على
الفراش فانتهرهما فكشف رسول الله ﷺ وجهه وقال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام
عيد أخرجاه في الصحيحين .. والظاهر من هاتين الجاريتين صغر السن لأن
عائشة كانت صغيرة . وكان رسول الله ﷺ يرسل إليها الجوارى فيلعبن معها .
وروى أبو جعفر بن محمد أنه قال لأبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله
حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عن جوار يغني أي شيء هذا
الغناء ؟ قال غناء الركب . أتيناكم .. أتيناكم (١) .

وروى بإسناد عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كانت عندنا يتيمة من

(١) وسيأتي حديث عائشة والرد على الذين احتجوا بها إن شاء الله .

الأنصار فكنت فيمن أهداها إلى زوجها فقال رسول الله ﷺ : يا عائشة : إن الأنصار ناس فيهم غزل فما قلت ؟ قالت دعونا لها بالبركة قال أفلا قلت :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحبيكم
فلولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحبة السمراء لم تسمن عذارىكم

وبالسند المتصل إلى جابر أنه قال : قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : أهديتم الجارية إلى بيتها ؟ قالت نعم قال فهلا بعثتم معها من يغنيهم يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحبيكم

فإن الأنصار قوم فيهم غزل وقال . قلت فقد بان بما ذكرنا ما كانوا يغنون به وليس مما يضرب ولا كانت دفوفهن ما يعرف اليوم . هذا في عصر القائل . فكيف في عصرنا هذا أو ما هم عليه مما لا يرضى به عاقل من إخفاء الذكر والجهربالغناء في الجوامع وغيرها بما لا يحل سماعه ولا يليق ذكره بين أهل الفساد وبين النساء والصبيان المرد من رقص ولعب وكسر وخفض إلى جانب كشف أعضائهم وأجسادهم وتخضيب الأيدي مما لا يليق ذكره ولا يحل وصفه ولا سماعه وقد جعلوا ذلك عادة لهم ليلاً ونهاراً لاعبادة بحيث إذا ترك ذلك من بينهم ربما الغالب لم يحضر الذكر ولا يذكر ولم يحضرهم أصلاً فإننا لله وإنا إليه راجعون .

ومما أورده القائل رحمه الله ورضى عنه قوله : ومن ذلك أشعار ينشد بها
المزهدون بتطريب وتلحين يزعج القلوب إلى ذكر الآخرة ويسمونهم
المزهديات^(١) لقول بعضهم :

يا غاديا في غفلة وراخا إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفا سيئطق الله به الجوارحا
يا عجباً منك وأنت تبصر كيف تجنب الطريق الواضحا

وهذا مباح أيضاً وإلى مثله أشار أحمد بن حنبل في الإباحة فيما هو متصل
بأحمد أنه سئل : لقصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أى شيء تقول فيها ؟
فقال مثل أى شيء ؟ فقليل يقولون :

إذا ما قال لي ربى أما استحييت تعصيني
وتخفى الذنب من خلقى وبالعصيان تأتيني

(١) الزهديات : أى التي ترهّد في الدنيا .

ولا حرج في ذلك : فصحيح أن الشعراء يتبعهم الغاوون ولكن الحق سبحانه وتعالى
استثنى منهم فئة قليلة .

وإنما يتبعهم الغاوون لأنهم في كل واد ييتمون .. وأنهم يقولون ما لا يفعلون .. ذلك أن
الشعر مجال لانطلاق العاطفة .. فيسبح في حالة هي أشبه بالسكر فيقول ما لا يجب الإفصاح
عنه .. أو يعلى بقدر إنسان فوق قدره أو لم يقل شاعر لحاكمه ..
ما شئت لا ما شامت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فقال له أعد على فأعادها عليه فقدم ودخل بيتـه ودخل الباب فسمع نحيه
من داخل وهو يقول لنفسه البيتين المتقدمين .
ومن المباح :

هل لقلب قد فاته الوصل صبر
أو لطرف لم يرسل الدمع عذر
أو يطيق الصدود بعد التذاني
مدنف حظه غرام وهجر
مدعى الحب سلم الروح طوعا
فاجتماع الضدين حب وحظر
هون الروح في الغرام جميل
وكثير وقيس وليلى وبشر^(١)
أين دعواك في محبة فرد
لا يدانيه في معانيه فكر

ومن الأشعار أشعار ينشدها الثّوّاح يشيرون بها الأحزان والبكاء فهي عنها لما
تضمنتها من إثارة للأحزان في أهل ذلك الزمان وقرب عهدهم برسول
الله ﷺ والصحابة . والتابعين فكيف بما ينشده فسقة زماننا هذا مما لا يخل
وصفه ولا سماعه بين النساء الأجانب حيث يعلو نحيبهن وأصواتهن الخرم سماعها

(١) بل من المباح ما فيه ذكر لله وصلاة على رسول الله ﷺ .. اسمع معي قول القائل :
يارب صلّ على الحبيب محمد واجعله شافعنا بفضلك في غد
فلقد عرفتك منعنا متفضلاً ولذا دعوتك فاستجب لي سيدي

ولا ينكرون ذلك بل يستحسنونه ويجعلونه شباكاً جيع الأموال ومصايد
لعواطف النساء والصبيان والرجال . ومع ذلك يزعمون قربة واتصالاً ويفسدون
به عقول أهل الغفلة والجهال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . كالأشعار
التي ينشدها المغنون فيصفون فيها المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع
وتخرجها عن الاعتدال ويشير كامنها من حب الله وهو الغناء المعروف في هذا
الزمان مثل قول الشاعر :

ذهبي اللون يحسب من وجنتيه النار تقدح
خوفوني من فضيحتة وروعة الحسن تفضح

وقد أخرجوا لهذه الأغاني ألحاناً مختلفة كلها تخرج سامعها عن حيز الاعتدال
وتثير فيه حب الله . ولهم شيء يسمونه بالبسيط يدعج القلوب على مهل ثم
يأتون بالنشيد بعده فيفتح واسع القلوب . وقد أضافوا إلى ذلك ضرب القضيبي
والسجع به على وفق الإنشاد والدف بالجلالجل^(١) والشبابة فهذا للغناء المعروف
شوم . هذا في عصره فكيف في هذا العصر من ضربهم بالدفوف . والشبابيب
ورقصهم ولعبهم وخروجهم عن حد الاعتدال من غير حد . ولا اجتهد بين

(١) هذا في القرن التاسع والعاشر الهجري .. فما بالك بما استحدثه الناس واستخدموه في الصد
عن رب العباد من الأورج والبيانو .. الخ وعشرات الآلات ..
ولا ريب أن انتشار الغناء في عصرنا كان بسبب تشجيع المسئولين للمطربين والمطربات
والذين يدعون أنفسهم أهل الفن .. فإكرامهم وإنزالهم منازل الفنانين الأساتذة دليل على
ما وصلنا إليه من بعد عن الطريق السوي ؛ لذا فقد انتكست عندنا موازين الأخلاق ..
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

شابات وشبان ورجال ونسوان قد اختلط بعضهم ببعض وربما بعضهم تارك
للسنة والفرص . اتخذوه جنة فصدوا عن سبيل الله فلا حول ولا قوة إلا بالله
العلی العظیم .

تحذير النفس من الغناء

وقبل أن نتكلم في إباحته أو تحريمه أو كراهته نقول : ينبغي للعاقل أن ينصح
نفسه وإخوانه ويحذر تلبس إبليس في إجراء هذا الغناء فلا يحمل الكل محملاً
واحداً ، فيقول : قد أباحه فلان وكرهه فلان ، فنبدأ في الكلام في النصيحة
للنفس والإخوان .

تحريم الغناء

معلوم أن طباع الآدميين تتفاوت ولا تكاد تتفق ، فإذا ادعى صاحب
القلب السليم والبدن الصحيح والمزاج أن رؤية المستحسنات لا تزعجه ولا تؤثر
عنده . ولا تضره في دينه كذبناه في ادعاء عدم الخروج عن حيز الاعتدال . فإن
تعلل فقال : إنما أنظر إلى هذه المستحسنة معتبراً ، فالعجب من حسن الصنعة
في زجج الحاجبين ودعج العينين . ودق الأنف . ونقاء اليباض قلنا له في أنواع
المباحات ما يكفي في العبرة ، وها هنا ميل من طبعك يشغلك عن الفكرة .
فلا تدع عيناً لبلوغ شهوتك وجود فكرة فإن ميل الطبع شاغل عن ذلك فكذلك
من قال : إن هذا الغناء المطرب المثير للطباع المحرك لها إلى العشق وحب الدنيا
لا يؤثر عندي ولا يلفت قلبي إلى حب الدنيا ^(١) الموصوفة فيه فإننا نكذبه لموضع

(١) ذلك أن الإسلام حينما يحرم حراماً يحرمه على جماعة المسلمين ولا ينحل لواحد منهم .. =

اشترك الطباع . ثم لو كان قلبه بالخوف من الله تعالى عابثاً عن الهوى لأحضرها هذا المسموع الطبع . وإن كان قد طالت غيبته في سفر الخوف ، وأقبح القبيح البهجة ثم كيف تمر البهجة^(١) على من يعلم السر وأخفى . ثم إن كان الأمر كما زعم هذا المتصوف فينبغي أن لا يبيحه إلا لمن هذه صفته .

والقوم قد أباحوا على الإطلاق للشاب المبتدئ والصبي الجاهل ، فليس بصحيح ذلك الإطلاق^(٢) .

أما من قال إني لا أسمع الغناء للدنيا وإنما آخذ منه إشارات فهو مخطئ من وجهين :

أحدهما : أن الطبع يسبق إلى مقصوده قبل أنخذ الإشارات فيكون كمن قال : إني لأنظر إلى المرأة المستحسنة لأتذكر في الصنعة .

والثاني : أنه يقل أن يوجد فيه شيء يشار به إلى الخالق ، وقد جل الخالق أن يقال في حقه إنه يعشق الهيمان به فأنما نصيينا من معرفته الهيبة والتعظيم فقط ، وإذا قد انتهت النصيحة فلندكر ما قيل في الغناء .

قول الإمام أحمد :

أما مذهب أحمد رضي الله عنه فإنه كان الغناء في زمانه إنشاد قصائد الزهد إلا أنهم لها كانوا يلحنونها . اختلف الرواة عنه . فروى عنه ابنه عبد الله أنه

= ومدعى هذا قليل العقل بطيء الفهم إذ أن الشيطان يدخل أولاً من مدخل ميسرة يحسبها الإنسان شيئاً هيناً لا يؤثر فيه ثم يجره إلى الهاوية شيئاً فشيئاً والعياذ بالله .

(١) البهجة : أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها . والبهج الباطل والردى .

(٢) وسياق الرد على حجج القائلين بجل الغناء وشبهه .

قال : (الغناء ينبت الكفناق . ولا يعجبني) وبالإسناد عنه أنه سئل يوماً عن استماع القصائد فقال : (أكرهه وهو بدعة ولا يخالسون)^(١) .

(وروى عنه أبو الحارث أنه قال التعبير^(٢) بدعة . فقيل له إنه يرقق القلب فقال هو بدعة) .

وروى عنه يعقوب بن الحمان أكره التعبير وأنه نهى عن استماعه . وقال القائل : فهذه الروايات كلها دليل على كراهية للغناء وقال أبو بكر الخلال كره أحمد القصائد لما قيل له إنهم يحتاجون^(٣) ثم روى عنه ما يدل على أنه لا بأس بها .

قال المروزي : سألت أبا عبد الله عن القصائد . فقال بدعة . فقلت له : أيهم جرون ؟ فقال لا يبلغ بهم هذا كله ثم قال : قلت وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخلال وصاحبه عبد العزيز إباحة الغناء . وإنما أشار إلى ما كان في زمانها من القصائد الزهديات . وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد ويدل على ما قاله

(١) جاء في إغاثة اللهفان «قال عبد الله بن أحمد : سألت أبي عن الغناء ؟ فقال الغناء ينبت النفاق في القلب ولا يعجبني . ثم ذكر قول مالك : إنما يفعله عندنا الفساق . قال عبد الله : وسمعت أبي يقول : سمعت يحيى القطان يقول : لو أن رجلاً عمل بكل رخصة . بقول أهل الكوفة في التبيذ . وأهل المدينة في السماع . وأهل مكة في المتعة لكان فاسقاً .

قال أحمد : وقال سليمان التيمي : لو أخذت برخصة كل عالم . أو زلة كل عالم اجتمع في الشر كله .

(٢) التعبير : غير الرجل : هلل أو ردَّد صوتاً في قراءة أو غيرها .
(٣) يمزحون ويقبل حياؤهم ومنه الحديث (إن من المجانة أن يعمل الرجل عملاً بالليل الخ) .

أن أحمد سئل عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية واحتاج الصبي إلى بيعها . فقال تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية . فقيل له إنها تساوي ثلاثين ألفاً ولعلها إذا بيعت ساذجة تساوي عشرين ديناراً فقال لا تباع إلا على أنها ساذجة .

قال القائل : وإنما قال أحمد هذا لأن الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهد بل بالأشعار المطربة المثيرة للطباع إلى العشق وهذا دليل على أن الغناء محظور فأجاز تفويت المال على اليتيم وصار هذا قول أبي طلحة للنبي ﷺ : (عندى خمر لأيتام فقال: أرقها) فلو جاز استصلاحها لما أمره بتضييع مال اليتامى .

وروى المروزي عن أحمد أنه قال : كسب الخنث (١) خبيث ، وكسبه بالغناء وهذا لأن الخنث لا يغني بقصائد الزهد إنما يغني بالغزل والنوح . فبان من هذه الجملة أن الروایتين عن أحمد في الكراهة . وعدمها يتعلق بالزهديات الملحنة فأما الغناء المعروف اليوم فمحظور عنده . كيف ولو علم ما أحدث الناس فيه من الزيادات في عصرنا اليوم وما هم فيه من إظهارهم البدع والمحرمات في أفعالهم وأقوالهم وزعمهم بها أنها من العبادات والطاعات . ويظهرون على رؤوس الأشهاد بالجوامع وسائر الأوقات . ومع ذلك يجهلهم يزعمونها قربات . وأنهم من العلماء وأرباب الأحوال والمقامات وأنها تقربهم إلى الله!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(١) الخنث : الذي يشبه بالنساء . والخنثى هو ماله ما للرجال . وما للنساء معاً .

يا عجباً لقوم استخفوا وهانوا	إذا تليت عليهم المواعظ والقرآن
وتكاسلت جوارحهم عما	فرض عليهم الرحمن
فإذا سمعوا دُفْعًا وشبابةً أخذهم	الوجد وتجلى لهم الشيطان
وقاموا وهاموا وصفقوا	وضربوا الطبل وليس فيهم جنان
وأنشدوا بالنغمات التي	هي حرام محض وعصيان
لو كانت هذى الفعّال حقاً	لسبقهم إليها أحمد والنعمان
فإن قالوا فعل الرسول بعضها	فقولهم عليه زور وبهتان
فمن أين دليل قوم عموا وصمّوا	تخيل لهم الباطل حقاً هو الخسران
وإن قالوا بأن المشايخ تواجدوا	فهذا أقوى دليل وبرهان
فيقول هذا حقاً وصدقاً	لكنه حب سكن الجنان
فإن رقصوا و صفقوا وهاموا	وصدرت منهم نغّات وهذيان
فهذا من الشوق الذي أضرمهم	لما هو ظاهر من أحوالهم عيان

ولم يفعلوا ذلك من غير وجد	فحاشى لقوم أحبيهم الديان
فهم بفعل الرسول تمسكوا	وأقواله نطقوا بها إعلان

مذهب الإمام مالك :

وأما مذهب الإمام مالك رضى الله عنه فما رواه بالإسناد المتصل إليه أنه

سئل عما ترخص فيه أهل المدينة من الغناء . قال : إنما يفعله عندنا الفساق . (١)
وروى عنه أنه نهى عن الغناء وعن استماعه وقال إذا اشترى جارية فوجدها
مغنية كان له ردها بالعيب . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد
وحده فإنه حكى زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأساً .

قول الإمام أبي حنيفة :

وأما مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه فقد روى بالإسناد أنه قال : يكره
الغناء مع إباحته شرب النبيذ . ويجعل سماع الغناء من الذنوب .

وكذلك مذهب سائر الكوفة إبراهيم والشعبي وحامد وسفيان الثوري وغيرهم
لا اختلاف بينهم في ذلك قال : ولا نعرف بين أهل البصرة خلافاً في كراهة
ذلك (٢) والمنع منه إلا ما روى عن عبد الله بن الحسين العنبري أنه كان لا يرى
به بأساً .

(١) انظر الأغائة (٢٤٥/١) ط الحلبي .

وفيها «قال أبو يوسف في دار يسمع منها صوت المعازف والملاهي : ادخل عليهم بغير
إذنهم . لأن النهي عن المنكر فرض فلو لم يجر الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة
الفرض . قالوا : ويتقدم إليه الإمام إذا سمع ذلك من داره ، فإن أصّر حبسه أو ضربه
سياطاً . وإن شاء أزعجه عن داره» .

(٢) قال ابن القيم في إغاثة اللهفان «قلت : مذهب أبي حنيفة في ذلك من أشد المذاهب :
وقوله فيه أغلظ الأقوال . وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهي كلها كالزمار .
والدف ، حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة
وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسق ، والتلذذ به كفر .. هذا لفظهم ورووا في ذلك
حديثاً لا يصح رفعه» ا.هـ (٢٤٥/١) ط الحلبي .

كن حيًّا إذا خلوت بذنب ليس يخفى على الرقيب الشهيد
أتهانت بالإله جهارًا وتواريت عن عيون العبيد ؟
أقرأت القرآن أم لست تدرى أن مولاك دون جبل الوريد ؟

قول الإمام الشافعي :

وأما مذهب الإمام الشافعي رضى الله عنه فيما روى عنه بالسند المتصل إلى الحسن بن عبد العزيز الجروى قال : سمعت محمد بن إدريس الشافعي رضى الله عنه يقول : خفت بالعراق فَمَا أَحْدَثَتْهُ الرِّثَاقَةُ سَمُونَهُ التَّغْيِيرَ يَشْغُلُونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ الْقُرْآنِ . هذا فى عصره . كيف لو سمع فى يومنا هذا من اقوام قد عبادة لهم فى سائر أوقاتهم برفع أصواتهم به فى المساجد بالألحان المخرجة لهم عن الآداب الشرعية وتشويشهم على المصلين والعابدین بحيث لا يستمعون إلى المؤذنين ولا إلى إقامة الصلوات للمصلين وقد جعلوه شعارًا لهم فى كل حين فعليهم من الله ما يستحقون . إنا لله وإنا إليه راجعون ^(١) .

أيا عجبًا لذى عقل وفكر يقول يجواز لرقص فى الذكر

- (١) قال فى المذهب : « ولا يجوز على المنافع المحرمة . لأنه محرم . فلا يجوز أخذ العوض عنه كالميتة والدم .. وقد تضمن كلام الشيخ أمورًا :
أحدها : أن منفعة الغناء بمجرد منفعة محرمة .
الثاني : أن الاستئجار عليها باطل .
الثالث : أن أكل المال به أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضًا عن الميتة والدم .
الرابع : أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى . ويحرم عليه ذلك . فإنه بذل ماله فى مقابلة محرم . وأن بذله فى ذلك كبذله فى مقابلة الدم والميتة .
الخامس : أن الزمر حرام » . ا.هـ الاغائة (٢٤٦/١) ط الحلبي .

وضرب دُف وشبابة^(١) والضرب
والصرع أيضاً مع الصراخ فقد
زين لهم فأجابوا
ما جاء في خبر صحيح عنه
ولا عن علي وعثمان
بأن رقصوا وغنوا وضربوا
لكنهم تمسكوا بطرق الهدى
بالكف من أعظم النكر
زين لهم الشيطان ذلك الأمر
ولم يحييوا لسنة أحمد سيد البشر
ولا عن عمر والسيد أبي بكر
وتابعيهم ذوى المجد والفكر
بالتارات والطبل في الذكر
وسنة المصطفى كما جاء في الخبر

وقد ذكر أبو منصور الأزهرى^(٢) المَغْبِرَةُ قوم يغفرون يذكرون الله بدعاء
وتضرع وقد سمعوا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تغبيراً كأنهم إذا تناسدوا
بالألحان طربوا ورقصوا فسموا مغبرة لهذا المعنى .

وقال الزجاج سمو مغبرين لتزهيدهم الناس في الفاني من الدنيا وترغيبهم في
الآخرة .

هذا كان في زمن المتقدمين الذين كان عملهم لله وأخذهم عن الله .

(١) الشبابة : نوع من المزمار (وهى كلمة مولدة وليست عربية الأصل) .

(٢) جاء في القاموس جزء ثان ص ٩٩ المغبرة : قوم يغفرون بذكر الله أى يهللون ويرددون
الصوت بالقراءة .

وسموا بذلك لأنهم يرغبون الناس في الغايبة أى : الباقية حتى ينصرفوا عن الفانية .

كما وصفوا في كتاب الله ﷻ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأَسْحار هم يستغفرون ﷻ (١) . ﷻ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﷻ (٢) .

وأما يومنا هذا - إلا من وفقه الله - . فقد اتخذوه عادة لا عبادة تراهم في اللهو غارقين . وعلى الغيبة والنجمة مجتمعين . ولم يبالوا من أى وجه أكلوا أو لأى دعوة دعوا إليها مجبيين . ولا إن كانت في حل أو حرام يراعون . ولذُنُيا يضيعون ولأخراهم خاسرون فلا حول ولا قوة إلا بالله . إنا لله وإنا إليه راجعون .

وبإسناد إلى الشافعى أنه قال : « الغناء هو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فإنه سفيه ترد شهادته » .

وكان الشافعى رضى الله عنه يكره التعبير ، قال الطبري : فقد اجتمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه . وإذا فارق الجماعة مات ميتة جاهلية . وقد كان من أصحاب الشافعى رضى الله من ينكرون السماع . أما قدماءهم فلا نعرف بينهم خلافاً . وأما أكابر المتأخرين فعلى الإنكار منهم الطيب الطبري وله في ذم الغناء والمنع منه كتاب مصنف . حدثنا به عنه أبو القاسم الحريري ومنهم القاضي أبو بكر محمد ابن المظفر الشامي أنبأنا عبد الوهاب المبارك الأنماطي عنه أنه قال : ومن أضاف هذا إلى الشافعى فقد كذب عليه . حاشا للإمام الشافعى الفقيه أن يرضى للدين ما ليس فيه ، وضرب طارات وشبابة .

(١) سورة الذاريات : آية ١٨ .

(٢) سورة النور : آية ٣٧ .

والرقص والتصفيق فعل السفية^(١) . وقد نص الشافعي في كتاب آداب القضاء على أن الرجل إذا دام على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته . هذا قول علماء الشافعية ، وأهل الدين فيهم . وإنما رخص في ذلك من متأخريهم من قل علمه أو غلب عليه هواه^(٢) وقال الفقهاء من أصحابنا لا تقبل شهادة المغني والراقص .

وقد قال الشيخ الإمام العلامة تقي الدين الحصني الشافعي في شرح الغاية : وكذا لا تقبل شهادة المغني سواء أتى الناس أو أتوه وكذا الرقاص كهذه الصوفية الذين يسعون إلى ولائم الظلمة والمكسة ويظهرون التواجد عند رقصهم وتحريك رءوسهم وتلويح لحاهم الخنسية كصنع المجانين . وإذا قرئ عليهم القرآن لا ينصتون . وإذا زعق مزمار الشيطان صاح بعضهم على بعض يتمايلون قائلهم

(١) في هامش المخطوطة :

«عليك بمطالعة الكتب والدرس» واترك طريقة أهل الشبهة والرقص .

(٢) جاء في الإغائة «وقد تواتر عن الشافعي أنه قال : خلقت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة . يسمونه التغبير . يصدون به الناس عن القرآن .. فإذا كان هذا قوله في التغبير . وتعليله أنه يصد عن القرآن . وهو شعر يزهد في الدنيا . يغني به مغن فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غنائه . فليت شعري ما يقول في سماع التغبير عنده كنقطة في بحر . قد اشتمل على كل مفسدة . وجمع كل محرم . فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل» .

قال سفيان بن عيينة : كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر . والعابد الجاهل . فإن فتنها فتنة لكل مفتون . ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين . اهـ الإغائة (٢٤٧/١) ط الحلبي .

الله ما أفسقهم وأزهدهم في كتاب الله سبحانه وتعالى^(١) !!

يا عجباً لقوم استخفوا وهانوا إذا تليت عليهم المواعظ والقرآن . وتكاسلت جوارحهم عما فرض عليهم الرحمن ، فإذا سمعوا دفأً وشبابة أخذهم الوجد وتجل لهم الشيطان ، فزهدهم في كتاب الله سبحانه وتعالى . وهمتهم في مزامير الشيطان وقرآن الشيطان . عافانا الله من ذلك !

فصل في ذكر الأدلة على كراهة الغناء والمنع منه

استدل أصحابنا بالقرآن والسنة والمعنى فأما الاستدلال من القرآن العظيم
فثلاث آيات :

الآية الأولى : قوله تعالى^(٢) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾^(٣)
فبالسند المتصل إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قول الله عز وجل
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال : هو والله الغناء . وبسند متصل
إليه وبسند متصل إلى عكرمة عنه قال : هو الغناء . وبسند آخر إلى عكرمة عنه
قال : هو الغناء . وكذلك قال : الحسن وسعيد بن جبير وقتادة وإبراهيم
النخعي .

الآية الثانية : قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ ما هو متصل إلى عكرمة عن

(١) في هامش المخطوطة : «وما أرغهم في مزامير الشيطان وقرآن الشيطان عافانا الله» . هـ .

(٢) في هامش المخطوطة : «من يشتري لهو الحديث» . وبالسند إلى مجاهد قال : «هو الغناء» .

(٣) سورة لقمان : آية ٦ .

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ ^(١) ما هو متصل إلى سفیان الثوري عن ليث عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قال : هو « الغناء والمزامير » .

وأما الستة : فما هو بسند متصل إلى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع صوت زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه وعدل راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله ﷺ سمع زمارة راع فصنع مثل هذا . ا. هـ .

فإذا كان هذا فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال فكيف في زماننا هذا أو ما أحدثوه من البدع والضلال والاختلاط . بالنساء والرجال (الأوباش) الفسقة الأردال فتب إلى الله تعالى واستغفره من كل حال .

وبالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ أنه نهى عن شراء المغنيات وبيعهن وتعليمهن وقال ثمنهن حرام وتلا ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ^(٢)

وبسند إلى أبي أمامه قال : نهى رسول الله ﷺ عن بيع المغنيات وعن التجارة - فيهن وعن تعليمهن الغناء . وقال ثمنهن حرام وقال وفي هذا ونحوه أو قال شبه نزلت على ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) وقال ما من رجل يرفع عقيرة صوته للغناء إلا بعث الله عز وجل إليه ملكان هذا من ذا الجانب وهذا من ذا الجانب فلا يزالان يضربان

(١) سورة الإسراء : آية ٦٤ .

(٢) سورة لقمان : آية ٦ .

(٣) السابقة .

بأرجلها في صدره حتى يكون هو الذى يسكت .

وروت عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله عز وجل حرم القينة ويبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ... الآية ﴾ (١) .

وروى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « إنما نهيت عن صوتين أحمرقن فاجرين : صوت عند نعمة . وصوت عند مصيبة » .

وبسند متصل روايته إلى عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : دخلت مع رسول الله ﷺ فإذا ابنه إبراهيم يخود بنفسه فأخذه رسول الله ﷺ فوضعه في حجرة ففاضت عيناه فقلت : يا رسول الله : أتبكي وتنهانا عن البكاء ؟ فقال : لست عن البكاء نهيت . ولكن نهيت عن صوتين أحمرقن فاجرين . صوت - عند نعمة ولعب ولهو ومزامير الشيطان . وصوت - عند مصيبة وضرب وجه وشق جيوب ورنه شيطان .

وبسند متصل إلى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال : بعثت يهدم المزارم والطليل .

وبسند آخر إلى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي كرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله ﷺ بعثت بكسر المزامير .

وبسند إلى علي رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا فعلت أمتي

(١) السابقة .

خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها إذا اتخذت القيان والمعازف .
ويسند إلى أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : وإذا
اتخذ الفتي ذولاً . والأمانة مَعْنَمًا . والزكاة مغرمًا . وتعلم لغير الدين . وأطاع
الرجل امرأته . وعق أمه . وأدنى صديقه . وأقصى أباه . وظهرت الأصوات
في المساجد . وساد القبيلة فاسقهم . وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل
مخافة شره . وظهرت القيان والمعازف . وشربت الخمر . ولعن آخر هذه الأمة
أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً ، حمراء وزلزلة وخسفًا ومسحًا وقذفًا وآيات تتابع
كنظام بال قطع مسلكه فتتابع بعضه بعضاً^(١) .

وقد روى سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال : أنه يكون في أمتي خسف
وقذف ومسح قيل : يا رسول الله متى ؟ قال : إذا ظهرت المعازف والقيان
واستحلت الخمر . (ويسند إلى صفوان بن أمية قال : كنا عند رسول الله
ﷺ فجاء عمرو بن مرة فقال يا رسول الله . إن الله عز وجل قد كتب على الشقوة
فما أراني أَرْزُقُ إلا من ذمى بما لا يكفيني فأذن لي في الغناء في غير فاحشة فقال
رسول الله ﷺ : لا آذن لك ولا كرامة ولا نعمة عين كذبت ياعدو الله لقد
رزقك الله من حلاله ولو كنت تقدمت إليك لفعلت بك وفعلت قم عني وتب
إلى الله) أما إنك إن قلت بعد ما قدم إليك لضربتك ضرباً وجيعاً ولخلقت رأسك
مثله ونفيتك من أهلك وأخليت سبيلك لفتيان المدينة فقام عمرو وبه من الشر
والخرى ما لا يعلمه إلا الله فلما ولى قال رسول الله ﷺ : هؤلاء العصاة من
أمتي . من مات فيهم بغير توبة حشره الله عرياناً لا يستتر بهذه كلها قام ضرع .

(١) رواه الترمذى وقال : هذا حديث غريب .

وأما العقل : فقال ابن مسعود رضى الله عنها «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» . وقال إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه الشيطان^(١) وقال : تغنه . فان لم يُحسِّنْ قال تمَّنه .

ومر ابن عمر رضى الله عنها بقوم محرمين ومنهم رجل يتغنى فقال : «ألا لا سمع الله لكم»^(٢) ومر بجارية صغيرة تغنى فقال : «لو ترك الشيطان أحداً لترك هذه» .

وسأل رجل القاسم بن محمد عن الغناء فقال : «أنهاك عنه وأكرهه لك . قال أحرام ؟ قال : انظر يا أخى إذا ميز الله عز وجل الحق من الباطل في أيهما يجعل الغناء^(٣) ؟» . الشعبي وقال : «لعن المغنى والمغنى له» .

وبسند قال : «كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى مؤدب ولده» ليكن أول ما يعتقدونه من أن بعض الملاحى بدوها من الشيطان^(٤) وعاقبتها سخط الرحمن عز وجل ؟ فإنه بلغنى عن الثقات من حملة العلم «أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء . ولا يتحقق ذلك إلا بترك حضور تلك المواطن فهو

(١) ردفه : أى ركب خلفه .

(٢) استنكار أريد به السخط عليهم .

(٣) فالحق واضح . والباطل واضح .. فهل يمكننا أن نجعل الغناء من الحق وهو الذى يبيح الشهوات ويقبى القلوب .. ؟ وكذا فإنه حقاً من الباطل ..

(٤) بدوها : بدايتها .

أيسر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه .

وقال الفضيل بن عياض «الغناء رقية الزنا»^(١) . وقال الضحاك «الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب» وقال يزيد بن الوليد «يا بني أمة» إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة . ويذهب المروءة^(٢) . وانه لينوب عن الخمر . ويفعل ما يفعل السكر فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء . فإن النساء داعية الزنا^(٣) .

وقال القائل «وكم قد فتنت الأصوات بالغناء من عابد وزاهد» وقد ذكر جملة من أنبأهم في كتابه المسمى بدم الهوى^(٤) .
وبسند متصل أن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال : «كان سليمان بن عبد الملك في بادية له فسهر ليلة على ظهر سطح ثم تفرق عنه جلساؤه فدعا بوضوء فجاءت جارية له فيبينها هي تصب عليه إذا استمدها بيده وأشار إليها فإذا هي تساهيه مصغية بسمعها مائلة بجسدها كله إلى صوت غناء تسمعه من ناحية

(١) قول الفضيل أورده المصنف فيما سبق على أنه حديث .. والحق ما جاء هنا وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه .

وكلمة : رقية : أى تعويذة والمراد أنه موصل للزنا .

(٢) المروءة : أى الشجاعة والإقدام .

(٣) أى أن هذه الفعلة يكون الداعى إليها النساء أولاً : لأنها يابها مفاتنها تعلنها .. علانية .. والمرأة المحتشمة دالة باحتشامها على طهارتها .. ولذلك قال تعالى عن الزنا «الزانية والزاني» فقدمها .. بخلاف قوله «والسارق والسارقة» فقدم الرجل لأنه هو المتحمل للثبته .. والله تعالى أعلم .

(٤) لعنه الإمام أبو الفرج بن الجوزى فله كتاب بهذا الاسم ارجع إليه طبع مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

العسكر فأمرها ففتحت واستمع هو الصوت . فإذا صوت رجل يغنى فأنصت له حتى فهم ما يغنى به من الشعر . ثم دعا جارية من جواريه غيرها فتوضأ فلما أصبح أذن للناس إذناً عاماً فلما أجرى ذكر الغناء . ومن كان يسمعه ولين فيه حتى ظن بعض القوم أنه يشتهي ، فأفاضوا في التلبيس^(١) والتحليل والتسهيل . فقال هل بقي أحد يسمع منه ؟ فقال رجل من القوم : يا أمير المؤمنين : عندى رجلان من أهل الأبله^(٢) حاذقان قال . وأين منزلك من العسكر ؟ فأوما إلى الناحية التي كان الغناء فيها فقال سليمان : يبعث إليهما ، فوجد الرسول أحدهما فأقبل به حتى أدخله على سليمان فقال له : «ما اسمك ؟ قال : سمير . فسأله عن الغناء .. كيف هو ؟ فقال : حاذق محكم ، قال : فتى عهدك به ؟ ، قال في ليلتي هذه الماضية قال : وفي أي نواحي العسكر كنت ؟ فذكر له الناحية التي سمع منها الصوت قال فيها أنا ، ي . نيت فذكر الشعر الذي سمعه سليمان فأقبل سليمان فقال : هدر الجمل فضبعت الناقة وهب التيس فكسرت الشاة . وهدر الحما فزأقت الحمامة . وغنى الرجل فطربت المرأة»^(٣) ثم أمر به فخصى^(٤) .

وسأل عن الغناء أين أصله ؟ وأكثر ما يكون ، قالوا : بالمدينة وهو في الخنثين وهم الخذاق به وأصحاب الأمر فيه . فكتب إلى عامله بالمدينة وهو

(١) التلبيس : أي إدخال الأمور في بعضها . وتغيير الحقائق على أساس واه .

(٢) الأبله : بضم الهمزة والباء وتشديد اللام موضع من دجلة بقرب البصرة .

(٣) فالرجل يطرب عند سماع المرأة . والمرأة تطرب عند سماع الرجل .. ولذا فخرأ غناء الرجال والنساء معاً . كما يكرم سماع الرجل من الرجل والعكس لوقوع بعض الضرر ولتذكر الشهوات واللذات وقتها .. والله تعالى أعلم .

(٤) أي قطعت خصيتاه .

أبو بكر بن محمد بن عمر وابن حزم : أن اخص من قبلك من اخشين والمغنين

* * *

حالة المغنى

وأما المغنى فقد بينا أن الغناء يخرج الإنسان عن الاعتدال . ويغير العقل .
وبيان هذا أن الإنسان إذا طرب فعل ما يستقبحه - في حال صحته - من غيره
من تحريك رأسه وتصفيق يديه . ودق الأرض برجليه إلى غير ذلك مما يفعله
أرباب العقول السخيفة .. والغناء يوجب ذلك . بل يقارب فعله فعل الخمر في
تغطية العقل فينبغى أن يقع المنع فيه .

وبالإسناد : أنه ذكر عند محمود بن منصور من أصحاب القصائد قال :
هؤلاء الفرارون من الله عز وجل لو ناصحوا وصدقوه لأفادهم في سرائرهم ما
يشغلهم عن كثير من الآثام . ويسند إلى أبي عبد الله بن بطة العكبرى أنه سأله
سائل عن استماع الغناء فنهاه من ذلك وأعلمه أنه مما أنكره العلماء والمحققون
فالمغنون لهم شرائع بدعية . يظهرون الزهد وكل أسبابهم ظلم . يدعون الشوق
والمحبة بإسقاط الخوف والرجاء . يسمعون من الأحداث والنساء . ويطربون
ويصفقون ويتأوتون ويزعمون أن ذلك من شدة حبيبهم لربهم . وشوقهم إليه ..
تعالى الله عما يقول الجاحدون والظالمون علواً كبيراً ..

* * *

الشبه التي تتعلق بالغناء

(فصل) : في الشبه التي تعلق بها من أجاز سماع الغناء .

ففي حديث عائشة رضي الله عنها : أن جارتين كانتا تضربان عندها بدفين وفي بعض ألفاظه «دخل على أبو بكر وعندي جارتان من جواري الأنصار يغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث^(١) فقال أبو بكر : أمزور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ فقال عليّ ﷺ : دعهما يا أبا بكر (إن لكل قوم عيداً . وهذا عيدنا)^(٢) .

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار وقد سبق . ومنها حديث فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ أنه قال : لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته .

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : «فصل ما بين الحلال والحرام ضرب الدف» .

الجواب عليها

والجواب : أما حديث عائشة رضي الله عنها فقد سبق الكلام عليها . وبيننا أنهم كانوا ينشدون الشعر ويسمى ذلك غناء لنوع في الإنشاد . والترجيع . ومثل ذلك لا يخرج الطباع عن الاعتدال . وكيف يحتاج بذلك الواقع في ذلك

(١) بعث : موضع بقرب المدينة . ويوم معروف من أيام الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس .

(٢) الحديث : ذكره صاحب نيل الأوطار من مواطن التخصيص في الأعياد لما في الصحيحين من حديث عائشة هذا .

الزمان عند قلوب صافية على هذه الأصوات المطربة الواقعة في زمان كدر عند نفوس قد تملكها الهوى ؟!!! . ما هذا إلا مغالطة للفهم . هذا في زمان القائل .. فكيف في زماننا ؟^(١) . هذا مع هؤلاء الأجلاف السفلة البطلة والشباب^(٢) والشبان مع الأولاد المردان^(٣) والنسوان السفلة . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أو ليس قد صح في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « لو رأى رسول الله ﷺ ما أحدثه النساء لمنعهن المسجد » . هذا في زمانها مع قرب العهد من رسول الله ﷺ فكيف اليوم وتطيين وإبداء زينتهن . وإظهار أصواتهن بين الرجال الأجانب وخططن بهن وسماعهن إنشاد الغزليات والحرفيات التي لا يجوز ذكرها . ولا يخل وصفها من ذكر أشياء لا أصل لها هي خرافات يسمعونها من أصحاب الدعاوى الباطلات ممن باعوا الدين بالدنيا . فيزعمن أنها شيء وهي كالسراب يحسبه الظمآن ماءً فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وإنما ينبغي للمغنى أن يزن الأحوال كما ينبغي للطبيب أن يزن الزمان والسن والبلد ثم يصف على مقدار ذلك .. وأين الغناء بما تقاوت به الأنصار يوم بعث من غناء أمرد مُستَحْسِن بآلات مستطابة تجذب إليها النفس وغزليات يذكر فيها الغزال والغزالة . فيترعج شوقاً إلى المستلذ فلا يدعى أنه لا يحذر ذلك إلا كاذب أو خارج عن حد الآدميين .. ومن ادَّعى أخذ الإشارة من ذلك

(١) والمصنف من علماء القرن التاسع والعاشر .. فما بالك إذا جاء إلى الرابع عشر ..

(٢) الشباب : أى كبار السن الذين شابوا على قيد الحياة . وهي جمع أشيب .

(٣) المردان : جمع أمرد : وهو الشاب طر شارب ولم تنبت لحيته .

إلى الخالق فقد استحل في حقه ما لا يليق به على أن الطبع يسبقه إلى ما يجد من الهوى .

وقد أجاب أبو الطَّبري عن الحديث بجواب آخر . وأخبرنا أبو قاسم الحريري عنه أنه قال : هذا الحديث حُجَّتُنَا : لأن أبا بكر سمي ذلك مزموور الشيطان ولم ينكر النبي ﷺ قوله «إنما منعه من التغليب في الإنكار الحسن رفقه لا سيما في يوم العيد ..

وقد كانت عائشة رضى الله عنها صغيرة في ذلك الوقت ولم ينقل عنها بعد بلوغها وتحصيلها إلا ذم الغناء . وقد كان ابن أخيها القاسم بن محمد يذم الغناء ويمنع من سماعه . وقد أخذ العلم عنها .

وأما اللهو المذكور في الحديث الآخر فليس بصريح في الغناء فيجوز أن يكون إنشاء الشعر أو غيره .

وأما التشبيه بالاستماع إلى القينة فلا يمنع أن يكون المشبه به حراماً فإن الإنسان لو قال : وجدت للعسل لذة أكثر من لذة الخمر كان كلاماً صحيحاً . وإنما وقع التشبيه بالإصغاء في الحالتين وكون أحدهما ضاللاً أو حراماً لا يمنع من التشبيه .. وقد قال عليه أفضل الصلاة وأتم السلام : «إنكم لترون ربكم كما ترون القمر» فتشبيهه إيضاح الرؤية بإيضاح الرؤية وإن وقع الفرق بأن القمر في جهة يخط به نظر الناظر . والحق متره عن ذلك .

والفقهاء يقولون : بأن الوضوء لا تنشف الأعضاء منه لأنه أثر عبادة .

ولا يُسَنُّ مسح كدم فقد جمعوا بينها من جهة اتفاقها في كونها عبادة وأن
اختلفا في الطهارة والنجاسة . فاستدل ابن ظاهر بأن القياس لا يكون إلا على
مباح فقه الصوفية لا علم الفقهاء .

* وأما قوله «يتغنى بالقرآن» فقد فرس سفيان بن عيينه رضي الله عنه فقال :
معناه يستغنى به . وفسره الشافعي فقال : يَتَغَنَّيْ به ويترنم . وقال غيرهما :
يجعله مكان غناء الركبان إذا ساروا .

وأما الضرب بالدف فقد كان جماعة من التابعين يكسرون الدفوف وما كانت
هكذا فكيف إذا رأوا هذه الدفوف اليوم ؟ وكان الحسن البصري يقول : «ليس
الدف من سنة المسلمين في شيء» . وقال أبو عبيد بن سلام : من ذهب به إلى
الصوت فقد أخطأ في الأفاويل على رسول الله ﷺ وإنما معناه عندنا إعلان
النكاح واضطراب الصوت به . والذكر في الناس . ولو حمل على الدف
حقيقة . على أنه قد قال أحمد بن حنبل : أرجو أن لا يكون بالدف بأس^(١) في
العرس ونحوه وأكره الطبل .

* وأن ما روى عن عامر بن سعد البجلي أنه قال : طلبت ثابت بن سعد
وكان بدريًا فوجدته في عرس له قال : وإذا جوار يغنين ويضربن بالدفوف
فقلت : لا تنهى عن هذا قال : لا . إن رسول الله ﷺ رخص لنا في هذا ..

* وما روى عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول

(١) بأس : أي لا بأس بالدف في العرس ونحوه أما الطبل فهو عنده مكروه .

الله ﷻ : «أظهروا النكاح واضربوا عليه بالغربان - يعنى الدف»^(١)

قال : قلت : وكل ما احتجوا به لا يجوز أن يستدل به على جواز هذا الغناء المعروف المؤثر فى الطباع^(٢) .

وما أسند إلى المزنى أنه قال : مررنا مع الشافعى وإبراهيم بن اسماعيل على دار قوم وجارية تغنيهم .

خليلى ما بال المطايا كأننا نراها على الأعقاب بالقوم تنكص

فقال الشافعى : ميلوا بنا نسمع كلما فرغت قال الشافعى لإبراهيم : أيطربك هذا ؟ قال : لا . قال فمالك حس^(٣) !! ..

قال : قلت وهذا محال عن الشافعى . وفى الرواية مجهولون وابن ظاهر لا يوثق به . وقد كان الشافعى رضى الله عنه أجل من هذا . ويدل على صحة ما ذكرناه ما أخبرنا به أبو القاسم الحريرى عن أبى الطيب الطبرى قال : أما سماع الغناء من المرأة التى ليست بمحرم فإن أصحاب الشافعى قالوا : لا يجوز سواء كانت حرة أو مملوكة قال : وقال الشافعى : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفیه ترد شهادته ثم غلط القول فيه فقال : وهو ديانة .

(١) حديث : رواه ابن ماجه ونفقه : «أعلنوا هذا النكاح واضربوا عليه بالغربان» .

(٢) فالدف صوت لا يثير شهوة . ولا يدعو إلا لشيء معين .. تعارف عليه الناس وهو إعلان النكاح .. ولا تأخذ من ذلك استخدامه فى الإثارة .. فإن المبالغة فى الشيء تخرجه عن حكمه فيكره والله أعلم .

(٣) أى ليس لديك إحساس وتذوق للغناء !! .

وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس . ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً منافقاً .

وبالسند قال : أخبرنا الحاكم أبو عبد الله النيسابوري قال : أكثر ما التقيت أنا وفارس بن عيسى الصدقي في دار أبي بكر الإبرسي للسمع من هرة رحمهما الله فإنها كانت من مستورات القوالات . قال : قلت : وهذا أقبح شيء من مثل الحاكم . كيف خفي عنه أنه لا يخل أن يسمع من امرأة ليست له بمحرم ؟ ثم يذكر هذا في تاريخ نيسابور وهو كتاب علم من غير تحاشٍ عن ذكر مثله ؟

وبالسند إلى أبي علي الرودباري أنه سئل عن سماع الملاحى ويقول هي لي حلال لأنني وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال فقال : نعم وصل لعمرى ولكن إلى سقر^(١) .

فإن قال قائل : قد بلغنا عن جماعة أنهم سمعوا من المنشد شيئاً فأخذوه على مقصودهم وانتفعوا به قلنا : لا نذكر أن يسمع الإنسان بيتاً من الشعر أو كلمة فيأخذها إشارة يُعَاشِرُ معناها آلات الصوت فيطرب كما سمع بعض المريدين صوت مُعَيَّنَةٍ تقول :

(١) أي إلى جهنم .

كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

فصاح ومات فهذا لم يقصد سماع المرأة ولم يلتفت إلى التلحين وإنما قتلته المعنى ثم ليس سماع كلمة أو بيت لم يقصد سماعه كالاستعداد لسماع الآيات الكثيرة المطربة مع أنغام الضرب بالقضيب والدف والتصفيق إلى غير ذلك .. ثم إن ذلك السامع لم يقصد السماع ولو سألنا : هل يجوز لى سماع ذلك ؟ منعاه .

وقد احتج لهم أبو حامد الطوسي بأشياء نزل فيها عن رتبته من الفهم مجموعها أنه قال : ما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس . وجواب هذا قد أسلفناه . وقال : لاوجه للتحريم سماع صوت فإذا كان موزوناً فلا يجرى أيضاً وإذا لم يجرى الآحاد لم يجرى المجموع فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان المجموع مباحاً قال : ولكن ينظر فيما يفهم من ذلك فإن كان فيه أمر محذور حرم نثره ونظمه وحرم التصويب به . قال القائل : قلت لا تعجب من هذا الكلام فإن الوتر بمفرده أو العود وحده من غير وتر لو ضرب لم يجرى ولم يطرِب فإن اجتماعه وضرب بهما على وجه مخصوص حرم وأزعج . وكذلك ماء العنب جائز شربه فإذا حدثت منه شدة مطربة حرم . وكذلك هذا المجموع يوجب طرباً يخرج من الاعتدال فيمنع من ذلك .

قال ابن عقيل رحمه الله : الأصوات على ثلاثة أضرب : محرم . ومكروه . ومباح ...

* فالمحرم الزمر والنأى والمعزفة والرباب .. نص أحمد على تحريم ذلك ..

ويلحق به الجرانة والجنك^(١) لأن هذه تطرب فتخرج عن حد الاعتدال وتفعل في طباع الغالب من الناس مايفعله السكر وسواء استعملت على حزن مهجة أو سرور لأن النبي ﷺ نهى عن صوتين أحمقين : صوت عند نعمة . وصوت عند مصيبة .

❖ والمكروه لأنه ليس بمطرب في نفسه وإنما يطرب ما يتبعه وهو تابع للقول . والقول مكروه .

ومن أصحابنا من يحرّم القضيب كما يحرّم آلات اللهو مثل الوتر والعود - فيكون فيه وجهان كالقول نفسه .

❖ والمباح الدف .. وقد ذكرنا عن أحمد أنه قال أرجو أن لا يكون بالغربال بأس^(٢) في العرس ونحوه . وأكره الطبل .

وسمع ابن عقيل بعض الصوفية يقول : إن مشايخ هذه الطائفة كلما وقفت طباعهم هداها الحادى إلى الله بالأناشيد فقال ابن عقيل : لاكرامة لهذا القائل إنما تخدى القلوب بوعد القرآن ووعيده ، وسنة الرسول ﷺ فأما تجديد الطباع

(١) الجنك : آلة موسيقية .

(٢) الغربال : الدف . والإمام يرجو حسب اجتهاده . أن يكون مباحاً أى لا بأس به في العرس . ومن أدب العلماء والفقهاء ألا يهجموا على الأحكام بل يستخدموا العبارات المهدبة مثل : أرجو ألا يكون به بأس أو أرجو ألا يؤاخذنا الله به .

بالألحان فقاطع عن الله . والشعر به ضمن صفة الخالق والمعشوق فيما يتجدد عنه فتنة . ومن سولت له نفسه التقاط العبر من محاسن البشر وحسن الصور . ففتون بل ينبغي النظر إلى الجبال والمحال التي أحالنا عليها من الإبل والخليل والرياح ونحو ذلك فإنها منظورات لا تهيج طبعاً ولا ترعجه ولا تؤثر عنده . وإنما خدعكم الشيطان فصرتم عبيد شهواتكم ولم تفقوا على حقيقة حتى قلتم هذه الحقيقة .

زناة في زى عباد شرهي في زى زهاد

مشبهة يعتقدون أن الله يعشق ويهاهم فيه . وقد كان جماعة من قدماء الصوفية ينكرون على المبتدئ السماع لعلمهم بما يثير من قلبه . وروى عن الجنيد أنه قال : إذا رأيت المريد يسمع السماع فاعلم أن فيه بقايا من اللعب . وسمع أبو الحسن النوري يقول لبعض أصحابه : «إذا رأيت المريد يسمع القصائد ويميل إلى الرفاهية فلا ترج خيره» هذا قول مشايخ القوم وإنما ترخص المتأخرون حباً للهو فقد استندوا إلى وجهين :

أحدهما : سوء ظن العوام بقدمائهم : لأنهم يثقون أن الكل كان هكذا .
والثاني : أنهم جردوا العوام على اللعب فليس للعاصي حجة في لعبه إلا أن يقول : فلان يفعل كذا وفلان كذا ..

وقد تثبت حب السماع بقلوب خلقي منهم فآثروه على قراءة القرآن ورقت قلوبهم عنده ما لا ترق عند القرآن . وما ذاك إلا لتكن هوى باطن وغلبة طبع وهم يظنون غير هذا .

وبالسند أنه سمع أبا نصر السراج يقول . حكى لي بعض إخواني عن

أبي الحسن الدراج قال : قصدت يوسف بن أبي الحسين الرازي من بغداد فلما دخلت الري سألت عن منزله فكل من أسأله عنه يقول : أى شىء تفعل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف فبِتُ تلك الليلة فى مسجد ثم قلت : جئت هذا البلد فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده وهو جالس فى المحراب ومن بين يديه رجل معه مصحف وهو يقرأ فدنوت منه فسلمت فرد السلام وقال : من أين أنت ؟ قلت من بغداد : قصدت زيارة الشيخ . قال : تحسن أن تقول لى شيئاً قلت نعم .

رأيتك تبنى دائماً فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى

فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه حتى رحمته من كثرة بكائه ثم قال لى : لا يابنى : تلوم أهل الرأى على قولهم : يوسف بن الحسين زنديق . ومن وقت الصلاة وأنا ذا أقرأ القرآن لم تقطر من عيني قطرة . وقد قامت على القيامة بهذا البيت قال صالح المزنى : أثبت الناس قدماً يوم القيامة آخذهم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

وبالسند إلى أبي الحارث الأواسى يقول : رأيت إبليس فى المنام على سطوح أولاس وأنا على سطح وعلى يمينه جماعة وعلى يساره جماعة . فقال لطائفة منهم : قولوا : فقالوا . وغنوا فغنوا واستمر حتى هممت أن أرمى نفسى من السطح ثم قال : ارقصوا فرقصوا أطيب ما يكون . ثم قال لى : يا أبا الحارث ما أصيب منكم شيئاً أدخل به عليكم إلا هذا !!

الوجد

(فصل) في الوجد ، قال القائل : هذه الطائفة إذا سمعوا الغناء تواجدت وصفقت وصاحت ومزقت الثياب . وقد كَبَسَ إبليس عليهم في ذلك وبالغ . وقد احتج بما أسند إلى أبي عبد الله بن علي السراج الطوسي قال : قد قيل إنه لما نزل ﴿ وَإِنْ جُهِتُمْ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) صاح سليمان الفارسي صيحة ووقع على رأسه ثم خرج هارباً ثلاثة أيام . وأن الربيع بن خيثم ^(٢) نظر إلى دكان حداد وبها حديدة في النار قد خرجت تلتهب فنظر إليها الربيع فمال وكاد يسقط ..

وقد اشتهر عن خلق كثير من العباد أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن فنهضوا من يموت ومنهم من يصعق ويغشى عليه ، ومنهم من يصيح . وهذا كثير في كتب الزهد

وأن سفيان الثوري أنكر أن يكون الربيع بن خيثم جرى له هذا لأن الرجل كان مِمَّنْ لا يجري له مثل هذا .

ثم نقول على تقرير الصحة : إن الإنسان قد يغشى عليه من الخوف فيسكنه الخوف فيبقى كالمنية وعلامة الصادق إذا كان على حائط وقع لأنه غائب .

(١) سورة الحجر : آية ٤٣ .

(٢) الربيع بن خيثم : زاهد عابد صوفي في القرن الأول . توفي سنة سبع وستين في أيام معاوية .

وأما من يدعى الوجد ويتحفظ من أن تزل قدمه ثم يتعدى إلى تخريق الثياب وفعل المنكرات في الشرع فإننا نعلم قطعاً أنَّ الشيطان يلعب به . واعلم أن الصحابة كانت أصنى القلوب وما كانوا يزيدون عند الوجد على البكاء والخشوع .

عن أنس قال : وعظ رسول الله ﷺ يوماً فإذا رجل قد صعق فقال رسول الله ﷺ . « من الملبس علينا ديننا إن كان صادقاً فقد أشهر نفسه . وإن كان كاذباً فحققه الله » فقال بعضهم منهم من كان يسمع القرآن فيصعق فقال : وما بيننا وبينهم إلا أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن سقطوا فهم كما يقولون . وعن الحسن أنه وعظ يوماً فتنفس رجل في مجلسه فقال الحسن : إن كان الله تعالى فقد شهرت نفسك . وإن كان لغير الله فقد هلكت .

وقال الفضيل بن عياض لابنه : - وقد سقط - يابني إن كنت صصصادقاً لقد فضحت نفسك ولئن كنت كاذباً لققده أهلكت نفسك .

ورأى أبو عثمان سعيد الواعظ قد تواجد إنسان بين يديه فقال : إن كنت صادقاً فقد أظهرت كل حالك . وإن كنت كاذباً فقد أشركت بالله .

فإن قال قائل : إنما نفرض الكلام في الصادقين لا في أهل الرياء . فما تقول فيمن أدركه الوجد . ولم يقدر على دفعه ؟.

الجواب أن الوجد انزعاج في الباطن فإن كفى الإنسان نفسه لثلاً يطلع على حاله يئأس الشيطان منه . فبعد منه كما كان يفعل أيوب السخيتاني إذا تحدث مسح أنفه وقال : ما أشد الزكام .

فإن قال قائل : فنفرض أن الكلام فيمن اجتهد في رفع الوجد فلم يقدر وغلبه الأمر فن أين يدخل الشيطان ؟

- فالجواب أنا لا ننكر ضعف بعض الطباع عن الواقع إلا أنه علامة الصادق أنه لا يقدر أن يدفع ولا يدري ما يجري عليه فهو من جنس قوله تعالى ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَبِقًا﴾^(١) .

وقرئ على عبد الله بن وهب كتاب : أهوال القيامة فخر مغشياً عليه فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ذلك بأيام .

وقد مات خلفه كثير من سماع الموعظة وغشى عليهم . وكان جواب يرعد عند الذكر فقال له إبراهيم : إن كنت تملكه فما أبالي ألا أعتد بك . وإن كنت لا تملكه فقد خالفت من هو خير منك . وقال الرستمي : فقد خالفت من كان قبلك قلت : إبراهيم هو النخعي الفقيه^(٢) وكان متمسكاً بالكتاب والسنة شديد الاتباع للأثر . وقد كان جواب من الصالحين البعيدين عن التصنع . وهذا خطاب إبراهيم له فكيف بمن لا يخفى حاله في التصنع ؟!

وإذا طربوا لسماع الغناء صفقوا ، قلت : والتصفيق منكر يطرب ويخرج عن

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٣ .

(٢) إبراهيم النخعي : عالم زاهد فقيه توفي سنة خمس وتسعين رضى الله عنه .

الاعتدال ويتزهر عن مثله العقلاء . ويشبه فاعله بالمشركون فيما كانوا يفعلونه عند صلاتهم عند البيت من مكاء وتصدية . والمكاء يعنى الصغير . والتصدية يعنى التصفيق قال تعالى : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ ^(١) .

قلت : وفيه أيضًا تشبه بالنساء . والعاقل يأنف من أن يخرج عن الوقار إلى أفعال النسوة والكفار .

بعض الحجج والرد عليها

(فصل) : وإذا قوى طريقهم رقصوا وقد احتج بعضهم بقوله تعالى لأيوب : ﴿ اركض برجلك ﴾ ^(٢) قلت : وهذا احتجاج بارد لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحًا كان لهم فيه شبهة وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء .

قال ابن عقيل : أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأنه يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازًا من الرقص ؟ ولئن جاز أن يكون الأمر بتحريك رجل دلالة على جواز الرقص في الإسلام لجاز أن يكون قوله سبحانه لموسى عليه السلام : ﴿ اضرب بعصاك الحجر ﴾ ^(٣) دلالة على ضرب الدفوف ، نعوذ بالله من التلاعب بالشرع .

(١) سورة الأنفال : آية ٣٥ .

(٢) سورة ص : آية ٤٣ .

(٣) سورة البقرة : آية ٦٠ .

واحتج بعض ناصرتهم بأن رسول الله ﷺ قال لعل : أنت مني وأنا منك نجعل . وقال لجعفر أشبهت خلقى وخلقى نجعل . وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا نجعل ومنهم من احتج بأن الحبشة رقصت والنبي ﷺ ينظر إليهم .

- فالجواب أن الحجل فهو نوع من المشى يفعل عند الفرح فأين هو من الرقص ؟ وأما رقص الحبشة فهو نوع من المشى يفعل عند الفرح فأين هو من الرقص الآن ؟ ومن رقص الحبشة نوع من المشى بتوثب يفعل عند لقاء الحرب .

وإن سعيد بن المسيب مرفى بعض أزقة مكة فسمع الأخصر الجدى يتغنى في دار العاصي بن وائل .

تضوع مسكاً بطن نعمان إذ به زينب في نسوة ضفران
فلما رأت ركب النخري أعرضت وكن من أن يلقيه جدران

قال : فضرب برجله الأرض زماناً وقال هذا مما يلذ سماعه « وكانوا يرون الشعر لسعيد بن المسيب » ..

قلت : هذا إسناد مقطوع ولا يصح عن ابن المسيب ولا هذا في شعره كان ابن المسيب أوفى من هذا . وهذه الأبيات مشهورة لمحمد بن عبد الله بن نمير النخري الشاعر . ولم يكن غيري . وإنما نسب إلى جده وهو ثقفى وزينب بنت يوسف أخت الحجاج^(١) وسأله عبد الملك بن مروان عن الركب ما كان فقال :

(١) وهو الحجاج بن يوسف الثقفى : حاكم متعنت جبار فى عهد عبد الملك بن مروان وصاحب الخطبة المشهورة التى قال فيها :
«إلى لأرى رموس قد بيعت وحان قطافها وإنى لقاطفها .

كانت أحسرة عجافاً حملت عليها قطراتاً من 'عذائف' . فضحك وأمر الحجاج أن لا يؤذيه . ثم لو قدرنا أن ابن المسيب ضرب برجله الأرض فليس في ذلك حجة على جواز الرقص . فإن الإنسان قد يضرب برجله الأرض فليس في ذلك حجة على جواز الرقص . فإن الإنسان قد يضرب برجله الأرض أو يدقها بيده لشيء سمعه ولا يسمى ذلك رقصاً . فما أفتيح هذا التعليق !! وإن ضرب الأرض بالقدم مرة أو مرتين من رقصهم الذى يخرجون به عن سمع العقلاء للعب الذى يليق بالأطفال ؟ وما الذى يليق بالأطفال ؟ وما الذى فيه من تحريك القلوب إلى الآخرة ؟ هذه والله مكابرة وباردة !

قال أبو الوفا بن عقيل : قد نص القرآن على النهى عن الرقص فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مِرْحَاً ﴾ . وقدم المختال . والرقص أشد المرح والبطر . أو لسننا الذين قسنا النبيذ على الخمر لا تفاقمها في الإطراب والسكر ؟ فما بالناس لا نقيس القضيبي وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعها في الإطراب ؟ .

وعلى شيء يزرى بالعقل والوقار ويخرج سمع الحلم والأدب بأقبح من دى الحبة وكيف إذا كانت شبيهة يرقص ويصفق على وقاع الألحان والقضبان خصوصاً إن كانت أصوات نسوان ومردان . وهل يحسن بمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط والأهوال ثم هو إلى إحدى الدارين أن يسمن بالرقص سمن البهائم ويصفق تصفيق النسوة . وإني لقد رأيت مشايخ في عصرى ما بان لهم سن من التيسم فضلاً عن ضحك مع إدمان مخالطتى لهم كالإمام القاسم بن زيدان . وعبد الملك بن بشران . وأبى الطاهر بن العلاف

والجنيد^(١) والدينوري .

* * *

المتصوفة وحبائل الشيطان

فصل : فإذا تمكن الطرب من الصوفية في حال رقصهم جذب بعضهم أحد الجلوس ليقوم معه . ولا يجوز على مذهبهم للمجذوب أن يقعد فإذا قام قام الباكون تبعاً له . فإذا كشف أحدهم رأسه كشف الباكون رؤوسهم موافقة له . ولا يخفى على عاقل أن كشف الرأس مستقبح . وفيه إسقاط مروءة . وترك أدب . وإنما يقع في المناسك تعبدًا لله . ومن مذهبهم كشف الرأس عند الاستغفار وهذه بدعة تسقط المروءة وتنافي الوقار ولولا ورود الشرع بكشفه في الإحرام ما كان له وجه .

ذكر «تلييس إبليس» على كثير من الصوفية في صحبة الأصوات قال القائل : أعلم أن كثيرًا من الصوفية قد أغلقوا على أنفسهم باب النظر إلى النساء الأجانب مما أبعدهم عن مصاحبتن بامتناعهم عن محالطتھن . واشتغلوا بالتعبد عن النكاح واتفقت صحبة الأحداث لهم على وجه الإرادة . وقصد الزهادة ، فأماهم إبليس إليهم .

وأعلم أن المتصوفة في صحبة الأحداث على سبعة أقسام :

(١) الجنيد : من أشهر الصوفية وشيخ المشايخ في الطريقة . وكان مقبولاً لدى أهل الظاهر وأرباب القلوب توفي سنة سبع وتسعين ومائتين .

القسم الأول : أنخبث القوم وهم ناس يتشبهون بالصوفية ويقولون بالحلول . ما رواه أبو نصر عبد الله بن علي السراج^(١) ، قال : بلغني أن جماعة من الحلولية زعموا أن الحق اصطفى أجساماً لما حل فيها من معاني الربوبية ، ومنهم من قال :

هو حالٌ في المستحسنات تعالى الواحد

الصمد الجليل أن يكون له عديل

وذكر أبو عبد الله ابن حامد من أصحابنا : أن طائفة من الصوفية قالوا : إنهم يرون الله في الدنيا وأجازوا أن يكون في صفة الآدمي حالاً في الصور الحسنة حتى ربما استشهدوه في رؤيتهم الغلام الأمرد .

جليل جل عن مثل وشبه عزيز عز عن ذاك الحلول

القسم الثاني : قوم يتشبهون بالصوفية في ملبسهم ويقصدون الفسق .

فحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

القسم الثالث : قوم يبيحون النظر إلى المستحسن ، وقد صنف أبو عبد الرحمن السلمي^(٢) كتاباً سماه «سنن الصوفية» . فقال في آخر الكتاب : باب

(١) هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي : توفي في رجب عام ٣٧٨ هـ والملقب بطاووس الفقراء ، كان مريداً لأبي محمد المرتضى ، ورأى «السرى السقطى» و «سهل التستري» وعرف السراج برحلته واجتماعه بكثير من أعلام التصوف : ومن أشهر كتبه كتاب «اللمع» وسيأتي .

(٢) أبو عبد الرحمن تلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية وعلى رأسهم جده أبو عمر ، والدارقطني ، وأبو نصر السراج ، وكان مريداً لأبي القاسم النضراباوى وتسلم =

جوامع رخصهم : فذكر فيه الرقص والغناء والنظر إلى الوجه الحسن . وذكر ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه» وأنه قال : «ثلاثة تجلو البصر : النظر إلى الخضرة . والنظر إلى الماء . والنظر إلى الوجه الحسن» قلت : وهذان الحديثان لا أصل لهما عن رسول ﷺ : قلت : والفقهاء يقولون : من ثارت شهوته عند النظر إلى الأمرد حرم عليه . ومتى ادعى الإنسان أنه لا تثور شهوته عند النظر إلى الأمرد المستحسن فهو كاذب . وإنما أبيح على الإطلاق لثلا يقع الحرج في كثرة المخالطة بالمنع ، فإذا وقع الإلحاح في النظر دل على العمل بمقتضى ثوران الشهوة .

قال سعيد بن المسيب : إذا رأيتم الرجل يلح النظر إلى غلام أمرد فانهوه .

القسم الرابع : قوم يقولون : نحن لا ننظر نظرة شهوة ، وإنما ننظر اعتباراً

= منه الحرفة وأشهر كتبه : طبقات الصوفية . ولعل ابن غانم المقدسى قصد هذا الكتاب . فلم نعلم له غير هذا الكتاب .

وكتاب طبقات الصوفية هو الأصل لكتاب «نفحات الأنس» للجامي ، فقد ترجم الشيخ عبد الله الأنصارى الهروى (٤٨١هـ) طبقات الصوفية إلى الفارسية باللهجة الهروية القديمة ، وزاد عليه ما أملاه في مجالس الصحة ومجامع الوعظ والتذكير . وأقوالاً أخرى لبعض الشيوخ الذين لم يرد ذكرهم في الكتاب . وبعض أذواقه ومواجيدته التي جمعها وكتبها واحد من مريديه . ثم جاء «الجامي» فنقل هذه الترجمة من اللهجة الهروية بعبارة بسيطة متعارف عليها بين أهل عصره وأضاف إلى ذلك ذكر عبد الله الأنصارى ومعاصريه والمناظرين عنه وأطلق على هذه المجموعة اسم «نفحات الأنس» . ويشتمل كتاب «طبقات الصوفية» على تراجم لخمس طبقات من الشيوخ كل طبقة تتكون من عشرين فرداً . والكتاب مطبوع في القاهرة ، فقد حققه ونشره «نور الدين شريعة» سنة ١٩٥٣ م . ١هـ . كشف المحجوب للهجويرة (١٥٦) ط المجلس الأعلى .

ولا يضرنا النظر . وهذا محال منهم . فإن الطباع تتساوى فمن ادعى تمييزه من أبناء جنسه في الطبع ادعى المحال . وقد كشفنا هذا في أول كلامنا في السماع .

وفي سند إلى عبد الله بن الزبير الحنفى قال : كنت جالساً مع أبى النصر المعنوى . وكان من المبرزين العابدين فنظر إلى غلام جميل فلم تزل عيناه واقعتين عليه حتى دنا منه فقال له : سألتك بالله السميع وعزه الرفيع . وسلطانه المنيع إلا وقفت علىّ أروى من النظر إليك . فوقف قليلاً ثم ذهب ليمضى فقال له : سألتك بالحميد المجيد الكريم المبدئ المعيد إلا وقفت فوق ساعة فأقبل ساعة فأقبل يصعد النظر فيه ويصوبه ثم ذهب ليمضى فقال : سألتك بالواحد الأحد الجبار الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد إلا وقفت فوق ساعة فنظر إليه طويلاً ثم ذهب ليمضى فقال : سألتك باللطيف الخبير السميع البصير ومن ليس له نظير إلا وقفت فأقبل ينظر إليه ثم أطرق إلى الأرض ورفع رأسه بعد طویل وهو يبكى وقال : لقد ذكرنى هذا بنظرى إليه وجهاً حل عن التشبيه . وتقّددس عن التمثيل . وتعاضم عن التحديد . والله لأجهدن نفسى فى بلوغ رضاه بمجاهدنى فى جميع أعدائه وموالاتى أوليائه حتى أصير إلى ما أردته من نظرى إلى وجهه الكريم وبهائه العظيم . ولوددت أنه أرانى وجهه وجبسى فى النار ما دامت السماوات والأرض ثم غشى عليه .

لك الحمد ياذا الجود والمجد والعلا

تباركت تعطى من تشاء وتمنح

وبالسند إلى خبر النساج : أنه قال : كنت مع مخارق بن حسان الصوفى فى

مسجد الخيف^(١) ونحن محرمان فجلس إلينا غلام جميل من أهل المغرب فرأيت مخارقاً ينظر إليه نظراً أنكرته فقلت له : بعد أن قام إنك حرام في شهر حرام . ويوم حرام في بلد حرام في مشعر حرام . وقد رأيتك تنظر إلى هذا الغلام نظراً لا ينظره إلا المفتونون فقال : إلىّ تقول هذا ؟ ألم تعلم أنه قد منعتني من الوقوع في شرك إبليس ثلاث ، قلت : وما هن ؟ قال : ستر الإيمان وعفة الإسلام وأعظمها عندى الحياء من الله تعالى أن يطلع علىّ وأنا جاثم على منكر نهاني عنه ثم ضعف حتى اجتمع الناس عليه . قلت : انظروا إلى جهل الأحقق الأول ، ورمزه بالتشبيه وإن تلفظ بالتثنية . وإلى حقاقة هذا الثاني الذي ظن أن المعصية هي الفاحشة فقط . وما علم أن النظر بشهوة محرم ومحا عن نفسه أثر الطبع بدعواه التي تكذبها شهوته للنظر وقد حكى بعض العلماء أن صبيّاً أمرد حكى له قال : قال لي فلان الصوفي وهو يخبني : يا بني - الله إليك إقبال والتفات حيث جعل حاجتي إليك .

وحكى أن جماعة من الصوفية دخلوا على أحمد الغزالي وعنده أمرد وهو خال به وبينهما ورد وهو ينظر إلى الورد تارة وإلى الأمرد تارة فلما جلسا قال بعضهم : لعلنا كررنا قال : أوى والله فتصايحوا ساعة على سبيل التواجد . وحكى لي عنه أبو الحسين يوسف أنه كتب إليه في رقعة أنك تحب غلامك التركي فقرأ الرقعة ثم استدعى الغلام فصعد المنبر إليه فقبل عينيه وقال : هذا جواب الرقعة .

(١) الخيف ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء ومنه سمي مسجد الخيف .

قلت : لا أعجب من فعل هذا الرجل وإلقائه جلاباب الحياء عن وجهه .
إنما أعجب من البهائم الحاضرين كيف سكتوا عن الإنكار عليه ولكن الشريعة
بردت في قلوب كثير من الناس .

وبالسند إلى أبي الطيب الطبري أنه قال : بلغني عن هذه الطائفة التي تبيع
السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأُمرد . وبها زينته بالحلى والصبغات من
النبات وترغم أنها تقصد به الازدياد في الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال
بالصنعة على الصانع . وهذه النهاية في متابعة الهوى . ومخادعة العقل ومخالفة
العلم قال الله تعالى ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) وقال ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى
الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُونِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) فعدلوا عما أمرهم به من الاعتبار إلى ما نهاهم عنه وإنما تفعل
هذه الطائفة ما ذكرناه بعد تناول الألوان الطيبة والمآكل الشهية . فإذا اشتفت
منها نفوسهم طالبتهم بما يتبعها من السماع والرقص والاستمتاع بالنظر إلى وجوه
المرد ولم يتقللوا من الطعام ولم يخشوا إلى سماع ونظر .

قال أبو الطيب : وقد أخبر بعضهم في شعره عن أحوال المستمعين للغناء
وما يجدونه في حال السماع فقال :

أَتَذَكَّرُ وَقْتَنَا وَقَدْ اجْتَمَعْنَا	عَلَى طَيْبِ السَّمَاعِ إِلَى الصَّبَاحِ
وَدَارَتْ بَيْنَنَا كَأْسُ الْأَغَانِي	فَأُسْكِرَتِ النُّفُوسُ بِغَيْرِ رَاحِ

(١) سورة الذاريات : آية ٢١ .

(٢) سورة الغاشية : آية ١٧ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٨٥ .

فلم ترفيه إلا نشاوى سرور والسرور هناك صاح
إذا نادى أخوا اللذات فيه منادى اللهو حى على السباح
ولم تملك سوى المهجات شيئاً فأرختها لألحاظ ملاح

فإذا كان للسمع تأثيره فى قلوبهم بما ذكره القائل فكيف يجدى السماع نفعاً
وفيفد فائدة؟

وقال ابن عقيل : قول من قال : لا أخاف من رؤية الصور المستحسنة
ليس بشيء فإن الشريعة جاءت عامة الخطاب لا تميز الأشخاص وآى القرآن
تنكر هذه الدعاوى .

قال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ ^(١) وقال
﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى
الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ^(٢) فهل أمر بالنظر إلا
على صورة لا تميل النفس إليها ولا حظ للهوى فيها بل عبرة لا تمازجها شهوة .
ولا تعترئها لذة . وأما صور الشهوات ، فإنها قد تكون سبباً للفتنة وكذلك
ما بعث الله سبحانه وتعالى امرأة بالرسالة . ولا جعلها قاضياً . ولا مؤذناً . كل
ذلك لأنها محل فتنة وشهوة وربما قطعت عما قصدته الشريعة بالنظر فكذلك من
قال : أنا آخذ من الصور المستحسنة عبراً كذبناه وكل من ميز نفسه بطبيعة
تخرجه عن طباعنا بالدعوى كذبناه . وإنما هذه خدع الشيطان للمدعين وليس

(١) سورة النور : آية ٣١

(٢) سورة الغاشية : الآيات ١٧ . ١٨ . ١٩ . ٢٠ .

افتراق في الضباع بيننا . وأى افتراق والطباع واحدة .

القسم الخامس : قوم صحبوا المردان . ومنعوا نفوسهم من الفواحش
يعتقدون ذلك مجاهدة . وما علموا أن نفس صحتهم والنظر إليهم بشهوة
معصية . وهذه من خلال الصوفية قال : أنشدني أبو على الرود باري :

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرماً
وأحمل من ثقل الهوى ما لوانه على الجلد الصلد الأصم تهدما

وسأقي حديث يوسف بن الحصين وقوله : عاهدت ربى أن لا أصحب
حدثاً مائة مرة . فنسخها على قوام القدود وغنج ^(١) العيون .

وبالسند إلى أبي المختار الصبي قال : حدثني أبي قال : قلت لأبي الكيت
الأندلسي وكان جوالاً في الأرض حدثني بأعجب ما رأيت من الصوفية : قال :
صحبت رجلاً منهم يقال مهرجان وكان مجوسياً فأسلم وتصوف . فرأيت معه
غلاماً جميلاً لا يفارقه وكان إذا جاء الليل قام فصلى ثم ينام إلى جانبه ثم يقوم
فزحاً فيصلى ما قدر له ثم يعود فينام إلى جانبه أيضاً حتى يفعل ذلك في الليلة
مراراً . فإذا أسفر الصبح أو كاد يسفر أوتر ثم رفع يديه وقال : « اللهم إنك تعلم
أن الليل قد مضى على سلب . لم أقارب فيه فاحشة ولا كتبت الحفظة على فيه
معصية . وأن الذي أضمره قلبي لو حملته الجبال لتصدعت أو كان بالأرض
لتكدكتك ثم يقول : يا ليل اشهد بما كان مني فيك فقد منعني خوف الله عن
طلب الحرام والتعرض للآثام .

(١) غنج العيون : سحرها ودلاها .

ثم يقول : سيدى أنت تجمع بيننا على تقى ولا تفرق بيننا يوم تجمع فيه الأحباب فأقمت معه مدة طويلة أراه يفعل ذلك فى كل ليلة . وأسمع هذا القول . فلما هممت بالانصراف من عنده قلت له : سمعتك تقول : إذا انقضى الليل عنك كذا وكذا .. فقال : أو سمعتنى ؟ قلت . نعم . قال فوالله يا أخى إني كنت لأدارى من قلبى ما لوداراه سلطاننا من رعيته لكان من الله حقيقةً بالمغفرة ، قلت : وما الذى يدعوك إلى صحبة من تخاف على نفسك العنت من هله ؟

وبالإسناد إلى أبى ضمرة الصوفى أنه قال : رأيت بيت المقدس فتى من الصوفية يصحب غلامًا مدة طويلة فمات الفتى . وطال حزن الغلام حتى صار جلدًا وعظمًا من الضنى والكمد^(١) فقلت له يومًا : لقد طال حزنك على صديقك حتى أظن أنك لا تسلو بعده أبدًا ، فقال : كيف أسلو عن رجل أجل الله تعالى أن يعصيه معى طرفة عين وصاننى عن نجاسة الفسوق طول صحبتى له . وخلواتى معه فى الليل والنهار ؟

قلت : وهؤلاء قوم رآهم إبليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش فحسن لهم بداياتها فتعجلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة . وعزموا على مفازة النفس فى صدها عن الفاحشة فإن صدقوا وتم لهم ذلك فقد اشتغل القلب الذى ينبغى أن يكون شغله بالله تعالى بغيره وصفا الزمان الذى ينبغى أن يخلو فيه بما ينفع فى الآخرة بمجاهدة الطبع فى كفه عن الفاحشة . وهذا كله جهل وخروج

(١) الضنى : تمكن الضعف . واخزال منه .

الكمد : الحزن المكتوم والغم الشديد وتغير اللون وذهاب صفاء الوجد .

عن آداب الشريعة فإن الله تعالى أمر بغض البصر لأنه طريق القلب ليسلم القلب
لله من شائب يخاف منه . وما مثل هؤلاء إلا كمثل من أقبل إلى سباع في غيضة
متشاغلة عنه لا تراه فأثارها وحاربها فلن يأمن فيما بعد سلامته من جراحه إن لم
يهلك .

قوة المجاهدة وضعفها

(فصل) وفي هؤلاء من قويت مجاهدته مدة ثم ضعفت فدعته نفسه إلى
الفاحشة فامتنع حينئذ من صحبة المرد ..

وبالسند إلى أبي ضمرة محمد بن إبراهيم قال : قلت لمحمد بن العلا الدمشقي
وكان سيد الصوفية . وقد رأيته يمشي غلاماً وضياً^(١) مدة ثم فارقه لِمَ هجرت
ذلك الفتى الذي كنت أراه معك بعد أن كنت له مواصلاً . وإليه مائلاً ؟
قال : والله لقد فارقت من غير قلى^(٢) ولا ملل قلت ولِمَ فعلت ذلك ؟ قال :
رأيت قلبي يدعوني إلى أمر إذا خلوت به . وقرب مني لو أتيت لسقطت من عين
الله تعالى . فهجرته لذلك تنزيهاً لله تعالى ولنفسى عن مصارع الفتن .

(١) وضياً : وجيهاً حسناً .

(٢) قلى : كراهية ومنه قوله تعالى «ما ودعك ربك وما قلى» .

التوبة والبكاء

(فصل) وفيهم من تاب وأطال البكاء على إطلاق بصره بأن أمية بن الصامت الصوفي نظر إلى غلام فقراً ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ^(١) قال ابن الفارض : سجنه الله وقد حصنه بملائكة غلاظ شداد تبارك الله فما أعظم ما امتحنني به من نظرى إلى هذا الغلام ما شبهت نظرى إليه إلا بنار وقعت على قصب في يوم ريح فما أبقت ولا تركت ثم قال : استغفروا الله من بلاء جنته عيناي على قلبي لقد خفت ألا أنجو من معرفته ولا أنخلص من إثمه . ولو وافيت القيمة بعمل سبعين صديقاً ثم بكى حتى كاد يقضى فسمعتة يقول في بكائه : يا طرف لاشغلتك بالبكاء عن النظر إلى البلاء .

* * *

تلاعب المرضى

(فصل) وفيهم من تلاعب به المرض لشدة المحبة . كان عبد الله بن موسى من رؤساء الصوفية ووجوههم فنظر إلى غلام في بعض الأسواق فبلى به فكاد يذهب عقله عليه صباة وحباً وكان يقف في كل يوم على طريقه حتى يراه إذا أقبل وإذا انصرف فطال البلاء وأقعده عن الحركة الضني فكان لا يقدر يمشي خطوة فأتيته يوماً لأعوده فقلت : يا أبا محمد ما قضيتك ؟ وما الذي بلغ بك ما أرى ؟ فقال : أمور امتحنني الله بها فلم أصبر على البلاء فيها . ولم تكن

(١) سورة الحديد : آية ٤ .

بها طاقة . ورب ذنب استصغره الإنسان هو عند الله أعظم من ثبير^(١) وحقيق
بمن تعرض للنظر الحرام أن تطول به الأسقام ثم بكى فقلت : ما يبكيك قال :
أخاف أن يطول في النار شقائي في فأنصرف عنه . وأنا راحم له لما رأيت به من
سوء الحال .

قال أبو ضمرة : ونظر محمد بن عبد الله بن الأشعث الدمشقي وكان من
خيار عباد الله إلى غلام جميل فغشى عليه فحمل إلى منزله واعتاده السقم حتى
أقعد من رجله وكان لا يقوم عليها زمناً طويلاً فكنا نأتيه نعوذه ونسأله عن حاله
وأمره فكان لا يخبرنا عن قصته بسبب مرضه . وكان الناس يتحدثون حديث
نظره إلى غلام فبلغ ذلك الغلام فأثاه عائداً فغشى إليه وتحرك وضحك في وجهه
واستبشر برؤيته فما زال يعود حتى قام على رجله وعاد إلى حالته فسأله الغلام
يوماً المسير إلى منزله فأبى أن يفعل وكلمني أن أسأله أن يتحول إليه فأبى فقلت :
وما الذي تكره من ذلك ؟ فقال : لست بمعصوم من البلاء ولا آمن من الفتنة
وأخاف أن تقع على من الشيطان محنة فتجرى بيني وبينه معصية . فأكون من
الخاسرين .

وبهذا استطاع الإمام الجليل أن يضع تصوراً كاملاً لمصايد الشيطان وذم
الهوى .. وقد أحسن في الانتخاب . وأبدع في العرض والتحليل كما رأيت

(١) ثبير : جبل بمكة .

فما سبق .. إلا أنه - وقد انتخبه من (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) لابن القيم الجوزية - لم يتم العمل .. ولذا سماه منتخباً وليس مختصراً لإغاثة اللهفان ..

ولذلك فقد رأينا أن نتم هذا العمل فنختصر باقى الكتاب ونستدرك على المصنف ما لم يذكره فيما مضى - ليكون عملاً وافياً إن شاء الله وما التوفيق إلا بالله العزيز الحميد .

* * *

مكيدة التحليل

ومن مكايده التى بلغ بها مراده : مكيدة التحليل . الذى لعن رسول الله ﷺ فاعله وشبهه بالتيس المستعار . وعظم بسببه العار والشار . وغير المسلمين به الكفار . وحصل بسببه من الفساد ما لا يحصىه إلا رب العباد . واستكرت له التيوس المستعارات . وضائق به ذرعاً النفوس الأبيات . ونفرت منه أشد من نفارها من السفاح وقالت : لو كان هذا نكاحاً صحيحاً لم يلعن رسول الله ﷺ من أتى بما شرعه من النكاح . فالتكاح سته . وفاعل السنة مقرب غير ملعون والمحلل مع وقوع اللعنة عليه بالتيس المستعار مقرون . فقد سماه رسول الله ﷺ بالتيس المستعار . وسماه السلف بمسمار النار . فلو شاهدت الحرائر المصونات على حوانيت المحللين متبدلات . تنظر المرأة إلى التيس نظر الشاة إلى شفرة الجازر . وتقول : يا ليتنى قبل هذا كنت من أهل المقابر . حتى إذا تشارطا على ما يجلب اللعنة والمقت . نهض واستبعها خلفه للوقت بلا زفاف

ولا إعلان . بل بالتخفي والكتان . فلا جهاز ينقل . ولا فراش إلى بيت الزوج
يعول . ولا صواحب يهدينها إليه . ولا مصلحات يخلينها عليه . ولا مهر
مقبوض ولا مؤخر ولا نفقة ولا كسوة تقدر . ولا وليمة ولا نثار . ولا دف
ولا إعلان ولا شعار .

والزوج يبذل المهر وهذا التيس يطأ بالأجر . حتى إذا خلا بها وأرخى
الحجاب . والمطلق والولي واقفان على الباب . دنا ليطهرها بمائه النجس
الحرام . ويطيبها بلعنة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام .. حتى إذا قضيا عرس
التحليل . ولم تحصل بينهما المودة والرحمة التي ذكرها الله تعالى في التنزيل فإنها
لا تحصل باللعن الصريح . ولا يوجبها إلا النكاح الجائر الصحيح .

فإن كان قد قبض أجرة ضرابه سلفاً وتعجيلاً وإلا حبسها حتى تعطيه أجره
طويلاً .. فهل سمعتم زوجاً لا يأخذ بالساق حتى يأخذ أجرته بعد الشرط
والاتفاق ؟ حتى إذا طهرها وطيها . وخلصها بزعمه من الحرام وجنبا قال لها :
اعترفي بما جرى بيننا ليقع عليك الطلاق . فيحصل بعد ذلك الائتنام
والاتفاق . فتأتى هذه المسخمة^(١) إلى حضرة الشهود فيسألونها : هل كان
ذاك ؟ فلا يمكنها الجحود . فيأخذون منها أو من المطلق أجراً . وقد أرهقوها
من أمرهما عسراً . هذا . وكثير من هؤلاء المستأجرين للضراب يخلل الأم وابنتها
في عقدتين ويجمع مائة في أكثر من أربع . وفي رحم أختين . وإذا كان هذا من
شأنه وضعته . فهو حقيق بما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال :

(١) المسخمة : سخم الله وجهه وطلاه بالسخام وهو سواد القدر ويتفق هذا مع قوله تعالى « فأما
الذين اسودت وجوههم ... إلخ » . سورة آل عمران : آية ١٠٦ .

عن رسول الله ﷺ الخلل والسخن له . ا. هـ .

رواه الحاكم في الصحيح والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . قال :
والعمل عليه عند أهل العلم . منهم عمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان . وعبد
الله بن عمر رضي الله عنهم . وهو قول الفقهاء .

* * *

الحيل والمكر والخداع

ومن مكايده التي كاد بها الإسلام وأهله : الحيل والمكر والخداع الذي
يتضمن تحليل ما حرم الله . وإسقاط ما فرضه . ومضادته في أمره ونهيه . وهي
من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذمه .

فإن الرأي رأيان : رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار . وهو
الذي : آية اعتبره السلف . وعملوا به .

ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار . فهو الذي ذممه
وأنكره . وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به .
وترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام . وتخليص الحق من الظالم المانع له .
وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي . فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه .

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات . وتحليل المحرمات . وقلب المظلوم
ظالمًا . والظالم مظلومًا . والحق باطلاً والباطل حقًا . فهو النوع الذي

اتفق السلف على ذمه . وصاحوا بأهلهم من أفضار الأرض .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : لا يجوز شيء من الحيل في إبطال حق مسلم .

وقال الميموني : قلت لأبي عبد الله : من حلف على يمين ثم احتال لإبطالها . فهل تجوز تلك الحيلة ؟ قال : نحن لا نرى الحيلة إلا بما يجوز . قلت : أليس حيلتنا فيها أن نتبع ما قالوا . وإذا وجدنا لهم قولاً في شيء اتبعناه ؟ قال : بلى هكذا هو : قلت أو ليس هذا منا نحن حيلة ؟ قال : نعم .

فبين الإمام أحمد من اتبع ما شرعه الله له وجاء عن السلف في معاني الأسماء التي علقت بها الأحكام ليس بمحتال الحيل المذمومة : وإن سميت حيلة فليس الكلام فيها .

وغرض الإمام أحمد بهذا : الفرق بين سلوك الطريق المشروعة التي شرعت لحصول مقصود الشارع . وبين الطريق التي تسلك لإبطال مقصوده . فهذا هو سر الفرق بين النوعين . وكلامنا الآن في النوع الثاني .

قال شيخنا^(١) : فالدليل على تحريم هذا النوع وإبطاله من وجوه : الوجه الأول : قوله سبحانه وتعالى :

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون

(١) وهو شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «إقامة الدليل على إبطال التحليل» وقد نص ابن القيم على ما أورده هنا .

الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿١١﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ﴿١٢﴾ وقال في أهل العهد : ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾ ﴿١٣﴾ .

فأخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء المخادعين مخدوعون . ولا يشعرون أن الله تعالى خادع من خدعه . وأنه يكفي المخدوع شر من خدعه . والمخادعة : هى الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه . ليحصل مقصود المخادع . وهذا موافق لاشتقاق اللفظ فى اللغة . فإنهم يقولون : طريق خديع . إذا كان مخالفاً للمقصد لا يشعر به ولا يفطن له . ويقال للسراب : الخديع . لأنه يغر من يراه . وضب خدع . أى مراوغ . كما قالوا : أخدع من ضب . ومنه : «الحرب خدعة» ﴿١٤﴾ وسوق خادعة . أى متلونة . وأصله : الإخفاء والستر . ومنه سميت الخزانة مخدعاً .

فلما كان القائل «آمنت» مظهرًا لهذه الكلمة . غير مرید حقيقتها المرعية المطلوبة شرعاً . بل مرید لحكمها وثمرتها فقط مخادعاً . كان المتكلم بلفظ «بعت» و «اشتريت» و «طلقت» و «نكحت» و «خالعت» و «آجرت» و «ساقيت» و «أوصيت» غير مرید لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعاً . بل مرید لأمر آخر غير ما شرعت له . أو ضد ما شرعت له مخادعاً . ذلك مخادع فى أصل

(١) سورة البقرة آية : ٨ - ٩ .

(٢) سورة النساء آية : ١٤٢ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٦٢ .

(٤) خدعة : مثلثة الخاء . وكههزة . وروى بها جميعاً .

الإيمان . وهذا مخادع في أعماله وشرائعه قال شيخنا : وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده . كما أن الأول نفاق في أصل الدين .

يؤيد ذلك : ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس رضى الله تعالى عنها «أنه جاءه رجل فقال : إن عمى طلق امرأته ثلاثاً : أئحله له رجل ؟ فقال : من يخادع الله يخدعه» وعن أنس بن مالك : أنه سئل عن العينة . يعنى بيع الحرية ؟ فقال : إن الله تعالى لا يخدع . هذا ما حرم الله تعالى ورسوله . رواه أبو جعفر محمد بن سليمان الحافظ المعروف بمطين في كتاب البيوع له .

وعن ابن عباس : «أنه سئل عن العينة . يعنى بيع الحرية . فقال : إن الله لا يخدع هذا مما حرم الله تعالى ورسوله» رواه الحافظ أبو محمد النخشي .

فسمى الصحابة من أظهر عقد التبائع ومقصوده به الربا خداعاً لله . وهم المرجوع إليهم في هذا الشأن والمعول عليهم في فهم القرآن . وقد تقدم عن عثمان . وعبد الله بن عمر . وغيرهما أنها قالوا في المطلق ثلاثاً : لا يئحله إلا نكاح . رغبة . لا نكاح دلة . قال أهل اللغة : المدالة : المخادعة .

وقال أيوب السخيتاني في المختارين : يخادعون الله كما يخادعون الصبيان ، فلو أتوا الأمر عياناً كان أهون على .

وقال شريك بن عبد الله القاضي في كتاب الحيل : هو كتاب المخادعة .

قال «يعنى شيخ الإسلام بن تيمية» : وتلخيص ذلك أن مخادعة الله تعالى حرام . والحيل مخادعة لله .

بعض الحيل

وللحيل التي يتخلص بها من مكر غيره والغدر به أمثلة :

المثال الأول : إن استأجر أرضاً أو بستاناً أو داراً سنين . ثم لا يأمن من مكره إذا اصلحت الأرض والبستان . بنوع من أنواع المكر والغدر . ولو لم يكن إلا بأنه يدعى أن أجره المثل في هذه الحال أكثر مما سمي .

والحيلة في أمته من ذلك : أن يسمى لكل سنة أجراً معلوما . ويجعل أجره السنين المتأخرة معظم الأجرة . وأقلها للسنين الأولى . فلا يسهل عليه المكر بعد ذلك .

وعكسه إذا خاف المؤجر مكر المستأجر وغدره في المستقبل جعل معظم الأجرة في السنين الأولى . وأقلها في الأواخر .

* * *

المثال الثاني : أن يخاف المؤجر غيبة المستأجر . فلا يتمكن من مطالبة امرأته بالأجرة . ولا من إخراجها . فالحيلة في أمته من ذلك . أن يؤجرها رب الدار من المرأة . فإن دخل عليه تعذر مطالبتها بالأجرة . ضمن الزوج الأجرة أو أخذ بها رهنها . فإنه كان قد أجرها من الزوج وخاف غيبته أشهد على إقرار المرأة أن الدار له . وأنه في يدها بخكم إجارة الزوج إلى مدة كذا وكذا . وإن كفّل المرأة وقت العقد أنها ترد إليه الدار عند انقضاء المدة نفعه ذلك .

المثال الثالث : أن يخاف المستأجر أن يزداد عليه في الأجرة . ويفسخ عقده . أما
بكون العين المؤجرة وفقاً عند من يرى ذلك . أو يتحيل عليه . حتى يبطل
عقده .

فالحيلة في أمته وتخليصه : أن يسمى للأجرة أكثر مما اتفقا عليه . ثم يصارفه
عليه بقدر المسمى ويدفعه إليه . ويشهد عليه أنه قبض المسمى الذي وقع عليه
العقد . فإذا مكر به وطلب فسخ عقده طالبه بما قبضه من المسمى . هذا إذا
تعذر عليه رفع تلك الإجارة إلى حاكم يحكم بلادهما . وعدم فسخها للزيادة .

المثال الرابع : أن يخاف أن يؤجره ما لا يملك . فيأبى المالك ويفسخ العقد .
ويرجع عليه بالأجرة .

فالحيلة في تخليصه : أن يضمن المؤجر درك العين المستأجرة . وإن ضمن
من يخاف منه الاستحقاق ومطالبته كان أقوى .

المثال الخامس : أن يخاف فلس المستأجر ولم يجد من يضمن له الأجرة .

فالحيلة في فسخه : أن يشهد عليه في العقد أنه متى تعذر عليه القيام بأجرة
شهرًا وستة فله الفسخ . ويصبح هذا الشرط ولو لم يشترط ذلك . فإنه يملك

الفسخ عند تعذر قبض أجره ذلك ذاك الشهر . أو السنة . ويكون حدوث
الفلس عيئاً في الذمة يتمكن به من الفسخ . كما يكون حدوث العيب في العين
المستأجرة مسوغاً للفسخ . وهذا ظاهر إذا سمي لكل شهر وسنة قسطاً معلوماً .
ولا يعين مقدار المدة . بل يقول آجرتك كل سنة بكذا . أو كل شهر بكذا .
تقوم لى بالأجرة في أول الشهر أو السنة . فإن أفلس قبل مضي شيء من المدة
مست المؤجر الفسخ . وإن أفلس بعد مضي شيء منها ، فهل يملك الفسخ ؟ على
وجهين :

أحدهما : لا يملكه : لأن مضي بعضها كتلف بعض المبيع . وهو يمنع
الرجوع .

والثاني : يملكه . وهو قول القاضى : وهو الصحيح : لأن المنافع إنما تملك
شيئاً فشيئاً بخلاف الأعيان فإنها تملك من آن واحد فيتعذر تجديد العقد عند تجديد
المنافع .

المثال السادس : إذا أعسر الزوج بشفقة المرأة . ملكت الفسخ . فإن تحملها عنه
غيره لم يسقط ملكها للفسخ . لأن عليها في ذلك منة . كما إذا أراد قضاء دين
عن الغير . فامتنع ربه من قبوله . لم يجبر على ذلك .

وطريقه الحيلة في إبطال حقها من الفسخ : أن يخيلها بما وجب لها عليه من
الشفقة على ذلك الغير . فتصح الحوالة . وتلزم على أصلنا . إذا كان المحال عليه

غنيًا .

وطريقة صحة الحوالة : أن يقر ذلك الغير للزوج بقدر يُعَيَّنُ لنفقتها سنة أو شهرًا أو نحو ذلك . ثم يحيلها الزوج عليه . فإن لم يمكنه الإيجار في القبول . لعدم من يرى ذلك . وكل الزوج الملتزم لنفقتها في الإنفاق عليها . والزوج مخير بين أن ينفق عليها بنفسه . أو بوكيله .

وهكذا العمل في مسألة أداء الدين عن الغريم سواء .

المثال السابع : إذا خاف المضارب^(١) أن يضمه المالك من الأسباب التي لا يملكها بعقد المضاربة . كخلط المال بغيره . واشترائه بأكثر من رأس المال . والاستدانة على مال المضاربة . أو دفعه إلى غيره مضاربة أو أبضاعًا^(٢) . أو إيداعًا . أو الغربة . فطريق التخلص من ضمانه في هذا كله : أن يشهد على ربّ المال أنه قال له : اعمل برأيك . أو ما تراه مصلحة .

(١) المضاربة : مال من جانب وعمل من جانب آخر وهي لون من المعاملات الإسلامية والكلمة مشتقة من الضرب في الأرض سمي بها لأن المضارب يستحق الربح بسعيه وعمله .
(٢) أنى يدفعه بضاعة إلى غيره .

المثال الثامن : إذا كان لكل من الرجلين عروض . وأرادا أن يشتركا فيها شركة عنان^(١) . ففي ذلك روايتان :

الرواية الأولى : تصح الشركة وتقوم العروض عند العقد . ويكون قيمتها هو رأس المال . فيقسم الربح على حسبه . أو على ما شرطاه . وإذا أرادا الفسخ رجع كل منهما إلى قيمة عروضه واقتسما الربح على ما شرطاه . وهذا القول هو الصحيح .

والرواية الثانية : لا تصح إلا على التقدين . لأنها إذا تفاسخا الشركة . وأراد كل واحد منها الرجوع إلى رأس ماله . أو يقتسما الربح . لم يعلم ما مقدار رأس مال كل منهما إلا بالتقويم . وقد تزيد قيمة العروض وتنقص قبل العمل . فلا يستقر رأس المال .

وأيضاً فمقتضى عقد الشركة : أن لا ينفرد أحد الشريكين بربح مال الآخر . وهذه الشركة تفضى إلى ذلك . لأنه قد تزيد قيمة عروض أحدهما . ولا تزيد قيمة عروض الآخر . فيشاركه من لم تزيد قيمة عروضه . وهذا إنما يصح في المقومات كالرفيق والحيوان . ونحوهما . فأما المثليات . فإن ذلك مستف فيها . ولهذا كان الصحيح عند من منع الشركة بالعروض : جوازها بالمثليات . فالصحيح : الجواز في الموضعين . لأن مبنى عقد الشركة على العدل من الجانبين . وكل من الشريكين متردد بين الربح والخسران . ففيها في هذا الجواز

(١) شركة العنان أن يشتركا في شيء خاص دون سائر أموالها كأنه عن لها شيء فاشترياه مشتركين فيه .

مستويان . فتجوز ربح أحدهما دون الآخر في مقابلة عكسه . فقد استويا في رجاء الغنم وخوف الغرم . وهذا هو العدل . كالمضاربة . فإنه يجوز أن يربحوا وأن يخسرا . وكذلك المساقاة والمزارعة .

وطريقة الحيلة في تصحيح هذه المشاركة . عند من لا يجوزها بالعروض : أن يبيع كل منها بعض عروضه ببعض عروض صاحبه . فإذا كان عرض أحدهما يساوى خمسة آلاف . وعرض الآخر يساوى ألفاً . فيشتري صاحب العرض الذى قيمته خمسة آلاف من صاحبه خمسة أسداس عرضه الذى يساوى ألفاً بسدس عرضه الذى يساوى خمسة آلاف . فإذا فعلا ذلك صاروا شريكين . فيصير للذى يساوى متاعه ألفاً سدس جميع المتاع . وللآخر خمسة أسداسه . أو يبيع كل منهما صاحبه بعض عرض بضمن مسمى . ثم يتقاضيان فيصير مشتركا بينهما . ثم يأذن كل واحد منها لصاحبه فى التصرف . فما حصل من الربح يكون بينهما على ما شرطاه عند أحمد . وعلى قدر رءوس أموالهما عند الشافعى . والخسران على قدر المال اتفاقاً .

المثال التاسع : إذا تزوجها على أن لا يخرجها من دارها أو بلدها . أو لا يتزوج عليها . ولا يتسرى عليها . فالنكاح صحيح . والشرط لازم . هذا إجماع الصحابة رضى الله عنهم . فإنه صح عن عمر . وسعد ومعاوية . ولا يخالف لهم من الصحابة . وإليه ذهب عامة التابعين وقال به أحمد .

وخالف في ذلك الثلاثة . فأبطلوا الشرط ولم يوجبوا الوفاء به .

فإذا احتاجت المرأة إلى ذلك . ولم يكن عندها حاكم يرى صحة ذلك ولزومه . فالحيلة في حصول مقصودها : أن تمتنع من الأذن . إلا أن تشترط بعد العقد أنه إن سافر بها . أو نقلها من دارها . أو تزوج عليها فهي طالق . أو لها الخيار في المقام معه . أو الفسخ . فإن لم تثق به أن يفعل ذلك . فإنها تطلب مهرًا كثيرًا جدًا . إن لم يفعل . وتطلب ما دونه إن فعل . فإن شرط لها ذلك رضيت بالمهر الأدنى . وإن لم يشترط ذلك طالبت به بالأعلى . وجعلته حالاً . ولها أن تمتع نفسها حتى تقبضه . أو يشترط لها ما سألته فإن قيل : فعلى أى المهرين يعقد العقد ؟ .

قيل : فإن خاف أن يشترط لها ما طلبت . ويستقر عليه المهر الزائد ، فالحيلة أن يشهد عليها أنها لا تستحق عليه بعد الاشتراط شيئاً من المبلغ الزائد على الصداق الأدنى . وأنها متى ادعت به فدعواها باطلة ، فيستوثق منها بذلك ، ويكتب هو الشرط . ولها أن تطالب بالصداق الزائد . إذا لم يف لها بالشرط . لأنها لم ترض بأن يكون الأدنى مهرًا إلا في مقابلة منفعة أخرى تسلم لها . وهي المقام في دارها . أو بلدها أو يكون الزوج لها وحدها ، وهذا جار مجرى بعض صداقها . فإذا فاتها فلها المطالبة بالمهر الأعلى .

المثال العاشر : إذا أحاله بدينه . وخاف الختال أن يتوه^(١) ماله عند المحال عليه . وأراد التوثيق لماله .

فالحيلة في ذلك أن يقول : لا تخلنى بالمال . ولكن وكلنى في المطالبة به . واجعل ما اقبضه في ذمتى قرضاً . فيبرءان جميعاً بالمقاصة^(٢) .

فإن خاف المحيل أن يهلك المال في يد الوكيل قبل اقتراضه ، فيرجع عليه بالدين .

فالحيلة له : أن يقول للمحال عليه : اضمن عني هذا الدين لهذا الطالب ، فيضمنه فإذا قبضه قبضه لنفسه . فإن امتنع المحال عليه من الضمان احتال الطالب عليه على أنه لم يوفقه حقه إلى وقت كذا وكذا ، فالحيل ضامن لهذا المال . ويصبح تعليق الضمان بالشرط . فإن وفاه المحيل عليه وإلا رجع إلى المحال ، وآخذه بالمال .

* * *

المثال الحادى عشر : إذا كان له دين على رجل فرهنه به رهناً : ثم خاف أن يستحق الرهن فتبطل الوثيقة .

(١) يهلك ويذهب .

(٢) المقاصة : قاصرٌ قصاصاً ومقاصةً جازاه وفعل به مثل ما فعل وتقاص القوم قاص كل واحد منهم صاحبه في ماله أو غيره .

فالحيلة فيه : أن يضمن دينه لمن يخاف منه استحقاق الرهن . فإذا استحقه عليه طالبه بالمال . أو يضمنه درك الرهن . أو يشهد عليه أن لا حق له فيه . ومتى ادعى فيه حقاً فدعواه باطلة .

المثال الثاني عشر : إذا كان عليه مائة دينار . خمسون منها بوثيقة . وخمسون بغير وثيقة . وجعله الغريم القادر الذي بغير وثيقة .

فالحيلة له في تخليص ماله : أن يوكل رجلاً غريباً يقبض المال الذي بالوثيقة . ويشهد على وكالته علانية . ثم يشهد شهود وكالته . فإذا قبض الخمسين دينارا دفعها إلى مستحقها وغاب . ثم يطالبه المستحق بهذه الخمسين . فإن قال : دفعتها إلى وكيلك . أقام البينة أنه كان قد عزله عن الوكالة . فيلزمه الحاكم بالمال . ويقول له : اتبع القابض . فخذ مالك منه فإن كان الغريم حذراً لم يدفع إلى الوكيل شيئاً خشية مثل هذا . ويقول : لا أدفع إليك إلا بخضرة الموكل وإقراره أنك وكيله . فتبطل هذه الحيلة .

المثال الثالث عشر : إذا حضره الموت . ولبعض ورثته عليه دين . وأراد تخليص ذمته ، فإن أقر له به . ولم يصح إقراره ، وإن وصى لربه ، كان وصية

لوارث .

فاحيلة في خلاصه : أن يواطئه على أن يأتي بمن يثق به . فيقر له بذلك الدين . فإذا قبضه أو صده إن مستحقه . فإن خاف الأجنبي أن يلزمه الحاكم أن يخلف أن هذا الدين واجب لك على الميت . ولم تبرئه منه . ولا من شيء ومنه لم يخرجه أن يخلف على ذلك .

وانتقلنا إلى حيلة أخرى . وهي أن يقول المريض : بع دارك . أو عبدك من وارثي بالمال الذي له على فيفعل . فإذا لزمته اليمين بعد هذا حلف على أمر صحيح . فإن لم يكن له ما يبيعه إياه وهب له الوارث عبدًا أو أمة . فقبضه . ثم باعه من الوارث بالدين الذي على الميت .

المثال الرابع عشر : إذا قال لامرأته : إن سألتني الخلع . فأنت طالق ثلاثًا إن لم أخلعك . وقالت المرأة : كل مملوك لها حر . إن لم أسألك الخلع اليوم . فستل أبو حنيفة فيها فقال للمرأة : سليه الخلع . فقالت أسألك أن تخلعني . فقال للزوج : قل خلعتك على ألف درهم . فقال ذلك . فقال أبو حنيفة للمرأة قولي : لا أقبل . فقالت : لا أقبل . فقال أبو حنيفة : قومي مع زوجك . فقد برّ كل منكما في يمينه .

المثال الخامس عشر : سئل أبو حنيفة عن أنحورين تزوجا أختين . فزفت امرأة كل واحد منها إلى الآخر . فوطئها . ولم يعلموا بذلك حتى أصبحوا ، فقيل له : ما الحيلة في ذلك ؟ فقال : أكل منها راض بالتى دخل بها ؟ قالوا : نعم . فقال : ليطلق كل واحد منها امرأته طليقة . ففعلا . فقال : ليتزوج كل منها المرأة التى وطئها . فطابت أنفسها .

* * *

المثال السادس عشر : إذا كان لرجل على رجل مال . وللدنى عليه المال عقار . فأراد أن يجعل عقاره في يد غريمه يستغله . ويقبض غلته من دينه جاز ذلك . لأنه توكليل له فيه . فإن خاف الغريم أن يعزله صاحب العقار عن الوكالة . فالحيلة : أن يسترهنه منه ويستديم قبضه . ثم يأذن له في قبض أجرته من دينه ولو لم يأذن له فله أن يقبضها قصاصاً .

وله حيلة أخرى : أن يستأجره منه بمقدار دينه . فما وجب له عليه من الأجرة سقط من دينه بقدره قصاصاً .

* * *

المثال السابع عشر : إذا بانث منه إمرأته بينونة صغرى . وأراد أن يجدد نكاحها فخاف إن أعلمها لم تتزوج به . فله في ذلك حيل :

إحداها : أن يقول : قد حلفت بيمين . ثم استفتيت . فتقبل لى : جدد نكاحك فإن كانت قد بانت منك عاد بالنكاح وإلا لم يضررك . فإن كان ولى جدد نكاحها وإلا فالحاكم أو نائبه .

ومنها : أن يظهر أنه يريد سفرًا . وأنه يريد أن يقر لها بمال . أو يوصى لها به . وأن ذلك لا يتم . والأحوط أن أظهر عقد نكاح وأجعل ذلك صداقًا فيه .

فإن قيل : إذا بانت منه ملكت نفسها . ولم يصح نكاحها إلا برضاها . ولعلها لو علمت الحال لم ترض بالنكاح الثاني .

قيل : رضاها بتجديد العقد للغرض الذى يريده يتضمن رضاها بالنكاح . وهى لو هزلت بالإذن صح إذنها . وصح النكاح . مع أنها لم تقصده . كما لو هزل الزوج بالقبول صح نكاحها . وههنا قد قصدت بقاء النكاح . ورضيت به . فهو أولى بالصحة .

فإن قيل : فالرجل قاصد إلى النكاح . والمرأة غير قاصدة له ؟

قيل : بل قصدت إلى تجديد نكاح يتم به غرضها . فلم تخرج بذلك عن القصد والرضا .

ولو قال رجل لرجل . هزلاً ومزاحاً : زوجنى ابتك على مائة درهم . أو قال : زوجنى موليتك . وهى تسمع . فقال له : مزاحاً وهزلاً . قد زوجتكما . انعقد النكاح وحل له وطؤها لحديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى رواه أهل السنن عن النبى ﷺ :

«ثلاث جدهن جد . وهزلن جد : النكاح . والطلاق . والرجعة» .

المثال الثامن عشر : إذا كان لرجلين على امرأة ألف درهم مثلاً . فتزوجها أحدهما على نصيبه في رأس المال الذي عليها صح النكاح . وبرئت ذمة المرأة من ذلك المقدار . ولم يلزم الزوج أن يضمن لصاحبه شيئاً منه . لأنه لم يقبض شيئاً من نصيبه . ولم يحصل في ضمانه . فجرى مجرى إبرائها له منه .

وبعض الفقهاء يضمنه نصيب شريكه في المهر . ويجعله كالمقبوض . لأنه عاوض عليه بالبضع . فهو كما لو اشترى منها به سلعة . فإنها تكون بينها . وهاهنا تقدرت مشاركته في البضع . فيشاركه في بدله وهو المهر . فكأنها وقته نصيبه من الدين .

وطريق الحيلة في تخليسه من ذلك : أن يهب لنا نصيبه مما عليها ثم يتزوجها بعد ذلك على خمسمائة في ذمته . ثم تهب المرأة ما لها من الصداق . فإن أحد الشريكين إذا وهب نصيبه من المال المشترك لا يضمن لشريكه شيئاً . لأنه متبرع .

فإن خاف أن يهبها أو يبرئها فتغدر به . ولا تتزوج به ؟ فالحيلة له : أن يشهد على إقرارها أنه يستحق عليها ذلك المبلغ . ما دامت أجنبية منه . وأنه لا يستحق على زوجته فلانة شيئاً من ذلك المال .

وأكثر ما فيه : أن يسميها زوجة قبل العقد . فإذا تم العقد برئت من الدين .

فإن خاف أن لا تيرثه من الصداق . وتطالبه به ويسقط حقه من المال الذى عليها . فالخيلة له : أن يشهد عليها فى العقد : أنه برئ إليها من الصداق . وأنها لا تستحق المطالبة به .

بيان المقصود بهذه الأمثلة

والمقصود بهذه الأمثلة وأضعافها . مما لم نذكره : أن الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الخفيفة السمحة ، وما يسره من الدين على لسان رسول الله ﷺ وسهله للأمة عن الدخول فى الآصار والأغلال . وعن ارتكاب طرق المكر والخداع والاحتيال . كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار . بما هو أنفع لنا منه من الحق والمباح النافع . فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب والمجوس والصابئين وعبداء الأصنام .

وأغنانا بوجوه التجارات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار وأغنانا بنكاح ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع . والتسرى بما شئنا من الإماء عن الزنا والفواحش .

وأغنانا بأنواع الأشربة اللذيذة النافعة للقلب والبدن عن الأشربة الخبيثة المسكرة المذهبة للعقل والدين .

وأغنانا بأنواع الملابس الفاخرة . من الكتان . والقطن . والصوف . عن
الملابس . المحرمة من الحرير والذهب .

وأغنانا عن سماع الآيات وقرآن الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن .
وأغنانا عن الاستقسام بالأزلام . طلباً لما هو خير وأنفع لنا باستخارته التي
هى توحيد وتفويض واستعانة وتوكل .

وأغنانا عن طلب التنافس فى الدنيا وعاجلها بما أحبه لنا وندبنا إليه من
التنافس فى الآخرة . وما أعد لنا فيها . وأباح الحسد فى ذلك . وأغنانا به عن
الحسد على الدنيا وشهواتها .

وأغنانا بالفرح بفضل ورحمته . وهما فى القرآن . ومن الإيمان . عن الفرح
بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع . والعقار . والأثمان . فقال تعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِيفْرِحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾^(١) .

وأغنانا بالتكبر على أعداء الله تعالى . وإظهار الفخر والخيلاء لهم . عن
التكبر على أولياء الله تعالى والفخر والخيلاء عليهم . فقال ﷺ عن رآه يتبخر
بين الصنفين . «إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن» .

وأغنانا بالفروسية الإيمانية والشجاعة الإسلامية التى تأثيرها فى الغضب على
أعدائه ونصر دينه . عن الفروسية الشيطانية التى يبعث عليها الهوى

(١) سورة يونس : آية ٥٨ .

وحمية الجاهلية .

وأغنانا بالخلوۃ الشرعية حال الاعتكاف . عن الخلوۃ البدعية التي يترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة .

وكذلك أغنانا بالطرق الشرعية عن طرق أهل المكر والاحتيال .

فلا تشتد حاجة الأمة إلى شيء إلا وفيها جاء به الرسول ﷺ ما يقتضي إباحته وتوسعته . بحيث لا يوجبهم فيه إلى مكر واحتيال . ولا يلزمهم الآصار والأغلال . فلا هذا من دينه . ولا هذا .

كما أغنانا بالبراهين والآيات التي أرشد إليها القرآن عن الطرق المتكلفة المتعسفة المعقدة . التي باطلها أضعاف حقها : من الطرق الكلامية . التي الصحيح منها كلحم جمل غث على رأس جبل وعر . لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل .

ونحن نعلم علماً لا نشك فيه أن الحيل التي تتضمن تحليل ما حرمه الله تعالى . وإسقاط ما أوجبه لو كانت جائزة لسنها الله سبحانه . وندب إليها . لما فيها من التوسعة . والفرج للمكروب . والإغاثة للملهوف . كما ندب إلى الإصلاح بين الخصمين .

وقد قال المبعوث بالحنيفة السمحة ﷺ :

«ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثكم به . ولا تركت

من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثكم به . إلا وقد حدثكم به .
وتركتكم على البيضاء ليلها كنهارها . لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك .

فهلا ندب النبي ﷺ إلى الحيل . وحض عليها كما حض على إصلاح ذات
البين . بل لم يزل يحذر من الخداع . والمكر . والنفاق . ومشابهة . أهل
الكتاب باستحلال محارمه بأدنى الحيل .

ولو كان مقصود الشارع إباحة تلك المحرمات التي رتب عليها أنواع الذم
والعقوبات وسد الذرائع الموصلة إليها . لكان ترك أبوابها مفتحة أسهل من
المبالغة في غلقها وسدها . ثم يفتح لها أنواع الحيل ، حتى ينقب المحتال عليها من
كل ناحية . فهذا مما تصان عنه الشرائع . فضلاً عن أكملها شريعة وأفضلها
ديناً .

وقد قدمنا أن الضرر والمفاسد الحاصلة من تلك المحرمات لا يزول بالاحتياط
والتنقيب عليها . بل تقوى وتشتد مفسدها .

أقسام الحيل

إذا عرف هذا . فالطرق التي تتضمن نفع المسلمين ، والذب عن الدين .
ونصر المظلومين ، وإغاثة الملهوفين ، ومعارضة المحتالين بالباطل ليدحضوا به
الحق .. من أنفع الطرق . وأجلها علماً وعملاً وتعليماً .

فيجوز للرجل أن يظهر قولاً وفعلاً مقصوده به مقصود صالح . وإن ظن الناس أنه قصد به غير ما قصد به . إذا كان فيه مصلحة دينية . مثل دفع ظلم عن نفسه أو عن مسلم أو معاهد . أو نصرة حق . أو إبطال باطل . من حيلة محرمة . أو غيرها . أو دفع الكفار عن المسلمين أو التوصل إلى تنفيذ أمر الله تعالى ورسوله .

فكل هذه طرق جائزة أو مستحبة . أو واجبة .

وإنما المحرم : أن يقصد بالعقود غير ما شرعت له ، فيصير مخادعاً لله ، فهذا مخادع لله ورسوله . وذلك مخادع للكفار والفجار . والظلمة . وأرباب المكر والاحتيال . فبين هذا الخداع وذاك الخداع من الفرق كما بين البرء والإثم . والعدل والظلم . والطاعة والمعصية . فأين من قصده إظهار دين الله تعالى ، ونصر المظلوم . وكسر المظالم إلى من قصده ضد ذلك . .

إذا عُرف هذا فنقول : الحيل أقسام :

القسم الأول : الطرق الخفية التي يتوصل بها إلى ما هو محرم في نفسه . فتنى كان المقصود بها حراماً في نفسه . فهي حرام باتفاق المسلمين ، وصاحبها ظالم آثم .

وذلك كالتحليل على هلاك النفوس . وأخذ الأموال المعصومة ، وفساد ذات البين وحيل الشياطين على إغواء بني آدم . وحيل المخادعين بالباطل على إحضار الحق ، وإظهار الباطل في الخصومات الدينية والدنيوية ، فكل ما هو محرم في نفسه . فالتوصل إليه محرم بالطرق الظاهرة والخفية ، بل التوصل إليه

بالطرق الخفية أعظم إثماً . وأكبر عقوبة . فإن أذى المخادع وشره يصل إلى المظلوم من حيث لا يشعر . ولا يمكنه الاحتراز عنه ، ولهذا قطع السارق دون المنتهب والمختلس .

ومن هذا رأى مالك ومن وافقه : أن القاتل غيلة يقتل . وإن قتل من لا يكافئه . لمفسدة فعله . وعدم إمكان التحرز منه .
ومن هذا : رأى عبد الله بن الزبير : قطع يد الزغلي لعظم ضرره ، على الأموال . وعدم الاحتراز منه . بخلاف جاحد الوديعة فإنه هو الذى أثمته .

والعمدة فى ذلك على السنة الصحيحة التى لا معارض لها .

والقصد : أن التوصل إلى الحرام حرام . سواء توصل إليه بحيلة خفية أو بأمر ظاهر . وهذا النوع من الحيل ينقسم قسمين :

أحدهما : ما يظهر فيه أن مقصود صاحبه الشر والظلم كحيل اللصوص . والظلمة والخنونة .

والثانى : ما لا يظهر ذلك فيه . بل يظهر المحتال أن قصده الخير . ومقصوده الظلم والبغى . مثل إقرار المريض لوارث لا شيء له عنده ، قصداً لتخصيصه بالمقربة . أو إقراره بوارث . وهو غير وارث . إضراراً بالورثة ، وهذا حرام باتفاق الأمة . وتعليمه لمن يفعله حرام ، والشهادة عليه حرام ، إذا علم الشاهد صورة الحال . والحكم بموجب ذلك حكم باطل حرام يأثم به الحاكم باتفاق المسلمين ، إذا علم صورة الحال ، فهذه الحيلة فى نفسها

محرمه . لأنها كذب وزور . والمقصود بها محرم ، لكونه ظلمًا وعدوانًا .
 ولكن لما أمكن أن يكون صدقًا اختلف العلماء في اقرار المريض لو ارث .
 هل هو باطل . سداً للذريعة . ورداً للإقرار الذي صادف حق الورثة فيما هو
 متهم فيه . لأنه شهادة على نفسه فيما تعلق به حقهم . فيرد للتهمة . كالشهادة
 على غيره . أو هو مقبول . إحساناً للظن بالمقر . ولا سيما عند الخاتمة ؟
 القسم الثاني : ومن هذا الباب : احتيال المرأة على فسخ نكاح الزوج . مع
 إمساكه بالمعروف بإنكارها الإذن للولى . أو إساءة عشرة الزوج . ونحو ذلك .
 واحتيال البائع على فسخ البيع . بدعواه أنه كان محجوراً عليه .
 واحتيال المشتري على الفسخ بأنه لم ير المبيع .
 واحتتيال المؤجر على المستأجر في فسخ الإجارة . أو احتيال المستأجر عليه بأنه
 استأجر ما لم يره .
 واحتيال الراهن على المرتهن في فسخ الرهن . بأن يظهر أنه آجره قبل
 الرهن . أو كان رهنه عند زوجته . أو أمته . ونحو ذلك .
 فهذا النوع لا يَسْتَبِيحُهُ أحد لأنه من كبار الآثام . وهو من أقبح المخرمات .
 وهو بمنزلة لحم خنزير ميت حرام . وأنه في نفسه معصية . لتضمنه الكذب
 والزور ومن جهة تضمنه إبطال الحق ، وإثبات الباطل .
 القسم الثالث : ما هو مباح في نفسه . لكن بقصد المحرم صار حراماً .

كالسفر لقطع الطريق . ونحو ذلك . فها هنا المقصود حرام . والوسيلة في نفسها غير محرمة . لكن لما توسل بها إلى الحرام صارت حراماً .

القسم الرابع : أن يقصد بالحيلة أخذ حق . أو دفع باطل . لكن تكون الطريق إلى حصول ذلك محرمة . مثل أن يكون له على رجل حق فيجحد . فيقيم شاهدين لا يعرفان غريمه . ولم يرياه يشهدان له بما ادعاه . فهذا محرم أيضاً . وهو عند الله تعالى عظيم . لأن الشاهدين يشهدان بالزور . وشهادة الزور من الكبائر . وقد حملها على ذلك . وكذلك لو كان عند رجل دين فجحده إياه . وله عنده ودعة فجحد الودعة . وحلف أنه لم يودعه . أو كان له على رجل دين لا بينة له به . ودين آخر به بينة . لكنه اقتضاه منه . فيدعى هذا الدين . وقيم بينه به بينة . وينكر الاستيفاء .

أو يكون قد اشترى منه شيئاً . فظهر به عيب تلف المبيع به . فادعى عليه بضمنه . فأنكر أصل العقد . وأنه لم يشتر منه شيئاً . أو تزوج امرأة فأنفق عليها مدة طويلة . فادعت عليه أنه لم ينفق عليها شيئاً . فجحد نكاحها بالكلية . فهذا حرام أيضاً لأنه كذب . لا سيما إن حلف عليه . ولكن لو تأول في يمينه لم يكن به بأس فإنه مظلوم .

فإن قيل : فما تقولون لو عامله معاملة ربا ، فقبض رأس ماله . ثم ادعى عليه بالزيادة المحرمة . هل يسوغ له أن ينكر المعاملة أو يخلف عليها ؟ .

قيل : يسوغ له الخلف على عدم استحقاقها . وأن يدعوها دعوى باطلة .

فلو لم يقبل منه الحاكم هذا الجواب ساغ له التأويل في اليمين . لأنه مظلوم . ولا يسوغ له الإنكار والحلف من غير تأويل . لأنه كذب صريح . فليس له أن يقابل الفجور بمثله ، كما أنه ليس له أن يكذب على من كذب عليه ، أو يقذف من قذفه . أو يفجر بزوجة من فجر بزوجه . أو بابن من فجر بابنه .

فإن قيل : فما تقولون في مسألة الظفر؟ هل هي من هذا الباب ، أو من القصاص المباح ؟

قيل : قد اختلف الفقهاء فيها على خمسة أقوال :

أحدها : أنها من هذا الباب ، وأنه ليس له أن يخون من خانه . ولا يحدد من جرده . ولا يغضب من أغضبه . وهذا ظاهر مذهب أحمد ومالك .

والثاني : يجوز له أن يستوفي قدر حقه ، إذا ظفر بجنسه أو غير جنسه : وفي غير الجنس يدفعه إلى الحاكم يبيعه ويستوفي ثمنه منه . وهذا قول أصحاب الشافعي .

والثالث : يجوز له أن يستوفي قدر حقه ، إذا ظفر بجنس ماله : وليس له أن يأخذ من غير الجنس ، وهذا قول أصحاب أبي حنيفة .

والرابع : أنه إن كان عليه دين لغيره لم يكن له الأخذ ، وإن لم يكن عليه دين فله الأخذ ، وهذه إحدى الروايتين عن مالك .

والخامس : أنه إن كان سبب الحق ظاهراً ، كالنكاح ، والقرابة ، وحق الضيف ، جاز للمستحق الأخذ بقدر حقه ، كما أذن فيه النبي ﷺ لهند :

«أن تأخذ من مال أبي سفيان ما يكفيها ويكفي بيتها» .

وكما أذن لمن نزل بقوم ولم يضيفوه أن يعقبهم في ما لهم بمثل قراه ، كما في الصحيحين عن عقبة بن عامر قال :

قلت للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : «إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقرؤنا فما ترى ؟ فقال لنا : إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فأقبلوا . وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغي لهم» .

وفى المسند من حديث المقدم أبي كريمة أنه سمع النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول : «مَن نزل بقوم فعليهم أن يقرؤه فإن لم يقرؤه فله أن يعقبهم بمثل قراه» (١) .

وفى المسند لأحمد أيضًا من حديث أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«أما ضيف نزل بقوم فأصبح الضيف محرومًا ، فله أن يأخذ بقدر قراه ولا حرج عليه» .

وإن كان سبب الحق خفيًا ، بحيث يتهم بالأخذ وينسب إلى الخيانة ظاهرًا لم يكن له الأخذ وتعرض نفسه للتهمة والخيانة وإن كان فى الباطن آخذ حقه . كما أنه ليس له أن يتعرض للتهمة التى تسلط الناس على عرضه . وإن ادعى

(١) يعقبهم : أى يأخذ منهم عوضًا عما حرموه من القرى . يقال : يعقبهم - مشدداً . وعقباً وأعقبهم إذا أخذ منهم عقبى وعقبة . وهو أن يأخذ منهم بدلاً عما فاتته . ا . هـ . محقق نسخة الحلبي .

أنه يحق غير متهم .

وهذا القول أصح الأقوال وأسدها . وأرفقها لقواعد الشريعة وأصولها .
وبه تجتمع الأحاديث .

فانه قد روى أبو داود في سننه من حديث يوسف بن ماهك قال : «كنت
أكتب لفلان نفقة أيتام كان وليهم . فغالطوه بألف درهم . فأداها إليهم .
فأدركت له من أموالهم مثلها . فقلت : اقبض الألف الذى ذهبوا به منك .
قال : لا .

وحديث نبي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :
«أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تحن من خانك» .

وهذا . وإن كان في حكم المنقطع . فإن له شاهداً من وجه آخر . وهو
حديث طلحة بن غنم : أخبرنا شريك وقيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن
أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك .
ولا تحن من خانك» .

وقيس هو بن الربيع . وشريك ثقة . وقد قوى حديثه بمتابعة قيس له .
وإن كان فيه ضعف .

وله شاهد من حديث أيوب بن سويد عن أبي شاذب عن أبي التياح عن
أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ نحوه . وأيوب بن سويد - وإن كان فيه
ضعف فحديثه يصلح للاستشهاد به .

وله شاهد آخر . وإن كان فيه ضعف . فهو يقوى بانضمام هذه الأحاديث إليه . رواه يحيى بن أيوب عن إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عن مكحول : أن رجلاً قال لأبي أمامة الباهلي .

«الرجل أستودعه الوديعة . أو يكون لي عليه دين . فيجحدني . ثم يستودعني أن يكون له عندى الشيء . أفأجحده ؟ فقال : لا . سمعت رسول الله ﷺ يقول : أذّ الأمانة إلى من ائتمنك . ولا تحن من خانك» .

وله شاهد آخر مرسل . قال يحيى بن أيوب : عن ابن جريح عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «أذّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تحن من خانك . قلت : يا رسول الله . الرجل أمر به فلا يقريني . ولا يضيفني . فيمرني . أفأجزيه ؟ قال : لا : أقره» .

قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وله شاهد آخر . وهو ما رواه أبو داود من حديث بشر بن الخصاصية . قال : «قلت : يا رسول الله : إن أهل الصدقة يعتدون علينا . أفنكتم من أموالنا بقدر ما يعتدون علينا ؟ فقال : لا» .

وله شاهد آخر من حديث بشر هذا أيضاً .

«قلت : يا رسول الله . إن لنا جيراناً لا يدعون لنا شاذة . ولا فاذة إلا أخذوها فإذا قدرنا لهم على شيء أنأخذوه ؟ فقال : أذّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تحن من خانك» كنهه شيخنا في كتاب إبطال التحليل .

فهذه الآثار . مع تعدد طرقها واختلاف مخارجها . يشد بعضها بعضاً . ولا يشبه الأخذ فيها الأخذ في الموضعين اللذين أباح رسول الله ﷺ فيها الأخذ لظهور سبب الحق . فلا ينسب الأخذ إلى الخيانة . ولا يتطرق إليه . تهمة . ولتعسر الشكوى في ذلك إلى الحاكم . وإثبات الحق والمطالبة به

والذين جوزوه يقولون : إذا أخذ قدر حقه من غير زيادة . لم يكن ذلك خيانة . فإن الخيانة أخذ ما لا يخل له أخذه . وهذا ضعيف جداً . فإنه يبطل فائدة الحديث . فإنه قال : «ولا تخن من خانتك» فجعل مقابلته له خيانة . ونهاه عنها . فالحديث نص بعد صحته .

فإن قيل : فهلا جعلتموه مستوفياً لحقه بنفسه . إذ عجز عن استيفائه بالحاكم . كالمغصوب ماله . إذا رآه في يد الغاصب . وقدر على أخذه منه قهراً ؟ فهل تقولون : إنه لا يخل له أخذ عين ماله . وهو يشاهده في يد الظالم المعتدى ؟ ولا يخل له إخراجهم من داره وأرضه ؟

وكذلك إذا أغضب زوجته وحال بينه وبينها . وعقد عليها ظاهراً . بحيث لا يتهم فهل يحرم على الزوج الأول انتزاع زوجته منه . خشية التهمة ؟ وهذا لا تقولونه أنتم . ولا أحد من أهل العلم .

ولهذا قال الشافعي . وقد ذكر حديث هند : وإذا قد دلت السنة وإجماع كثير من أهل العلم على أن يأخذ الرجل حقه لنفسه سراً . فقد دل أن ذلك ليس بخيانة . إذ الخيانة أخذ ما لا يخل له أخذه .

فالجواب : أنا نقول : يجوز له أن يستوفى قدر حقه . لكن بطريق مباح .

فأما بخيانة وطريق محرمة فلا .

وقولكم : ليس بخيانة قلنا : بل هو خيانة حقيقة . ولغة . وشرعاً . وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيانة . وغايتها أنها خيانة مقابلة ومقاصة . لا خيانة ابتداء . فيكون كل واحد منها مسيئاً للآخر ظالمًا له . فإن تساوت الخيانتان قدرا وصفة فقد يتساقط إثمها . والمطالبة في الآخرة . أو يكون لكل منهما على الآخر مثل ما للآخر عليه وإن بقى لأحدهما فضل رجع به . فهذا في أحكام الثواب والعقاب .

وأما في أحكام الدنيا فليس كذلك . لأن الأحكام فيها مرتبة على الظواهر . وأما السرائر فالإله . ولهذا قال النبي ﷺ :

« انكم تختصمون إلي . وإنما أنا بشر أفضى بنحو مما أسمع . ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . فمن قضيت لي بشيء من حق أخيه فلا يأخذه . وإنما أقطع له قطعة من النار » . فأخبر ﷺ أنه يحكم بينهم بالظاهر . وأعلم المبطل في نفس الأمر أن حكمه لا يخل له أخذ ما يحكم له به . وأنه مع حكمه له بد فإنه يقطع له قطعة من النار . فإذا كان الحق مع هذا الخصم في الظاهر وجب على الحاكم أن يحكم له به . ويقره بيده . وإن كانت يدًا عادية ظالمة عند الله تعالى . فكيف يسوغ لخصمه أن يحكم لنفسه . ويستوفى لنفسه بطريق محرمة باطلة . لا يحكم بمثلها الحاكم وإن كان محققاً في نفس الأمر ؟ .

وليس هذا بمنزلة من رأى عين ماله أو زوجته بيد غاصب ظالم . فخلصها منه قهرا . فإنه قد تعين حقه في هذه العين . بخلاف صاحب الدين . فإن حقه

لم يتعين في تلك العين التي يريد أن يستوفي منها . ولأنه لا يتكتم بذلك . ولا يستخفي به كما يفعل الخائن . بل يكابر صاحب اليد العادية ويغالبه . ويستعين عليه بالناس . فلا ينسب إلى خيانة . والأول متكتم مستخف . متصور بصورة خائن وسارق . فالخاق أحدهما بالآخر باطل . والله أعلم .

نوع من الحيل

وهو أن يقصد ما حرمه الشارع . أو سقوط ما أوجبه . بأن يأتي بسبب نصبه الشارع سبباً إلى أمر مباح مقصود . فيجعله المختال المخادع سبباً إلى أمر محرم مقصود اجتنابه . فهذه هي الحيل المحرمة التي ذمها السلف . وحرّموا فعلها وتعليمها .

وهذا حرام من جهتين : من جهة غايته . ومن جهة سببه .

أما غايته : فإن المقصود به إباحة ما حرمه الله ورسوله . وإسقاط ما أوجبه .

وأما من جهة سببه : فإنه اتخذ آيات الله هزواً . وقصد بالسبب ما لم يشرع لأجله ولا قصده به الشارع . بل قصد ضده ، فقد ضاد الشارع في الغاية والحكمة والسبب جميعاً .

وقد يكون أصحاب القسم الأول من الحيل أحسن حالاً من كثير من

أصحاب هذا القسم . فإنهم يقولون : إن ما نفعناه حرام . وإثم . ومعصية . ونحن أصحاب تحيل بالباطل . عصاة لله ولرسوله . مخالفون لدينه . وكثير من هؤلاء يجعلون هذا القسم من الدين الذي جاءت به الشريعة . وأن الشارع جوز لهم التحيل بالطرق المتنوعة على إباحة ما حرمه . وإسقاط ما أوجبه . فأين حال هؤلاء من حال أولئك .

ثم إن هذا النوع من الحيل يتضمن نسبة العبث إلى الشارع . وشرع ما لا فائدة فيه إلا زيادة الكلفة والعناء . فإن حقيقة الأمر عند أرباب الحيل الباطلة : أن تصير العقود الشرعية عبثاً لا فائدة فيها . فإنها لم يقصد بها الاختال مقاصدها التي شرعت لها . بل لا غرض له في مقاصدها وحقائقها البتة . وإنما غرضه التوصل بها إلى ما هو ممنوع منه . فجعلها سترة وجّه يستتر بها من ارتكاب ما نهى عنه صرفاً . فأخرجها في قالب الشرع .

كما أخرجت الجهمية التعطيل في قالب التنزيه .

وأخرج المنافقون النفاق في قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشي .

وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان في قالب السياسة وعقوبة الجناة .

وأخرج المكاسون أكل المكوس في قالب إعانة المجاهدين . وسد الثغور . وعمارة الحصون .

وأخرج الروافض الإلحاد والكفر . والقدح في سادات الصحابة . وحزب رسول الله ﷺ وأوليائه وأنصاره . في قالب محبة أهل البيت .

والتعصب لهم . ومولاتهم .

وأخرجت الإباحية وفسقة المنتسبين إلى الفخر وتصوف بدعهم وشطحهم
في قلب الفقر . والزهد . والأخوال . والمعارف . ومحبة الله . ونحو ذلك .

وأخرجت الاتحادية أعظم الكفر والإلحاد في قلب التوحيد . وأن الوجود
واحد لا اثنان . وهو الله وحده . فليس هاهنا وجودان : خالق . ومخلوق .
ولا ربّ وعبد . بل الوجود كله واحد . وهو حقيقة الربّ .

وأخرجت القدرية إنكار عموم قدرة الله تعالى على جميع الموجودات :
أفعالها . وأعيانها في قلب العدل . وقالوا : لو كان الربّ قادرًا على أفعال عباده
لزم أن يكون ظالمًا لهم . فأخرجوا تكذيبهم بالقدر في قلب العدل .

وأخرجت الجهمية حمدهم لصفات كماله سبحانه في قلب التوحيد .
وقالوا : لو كان له سبحانه سمع وبصر . وقدرة وحياة وإرادة . وكلام يقوم به
لم يكن واحدًا وكان آلهة متعددة .

وأخرجت الفسقة والذين يتبعون الشهوات والعصيان في قلب الرجاء
وحسن الظن بالله تعالى . وإساءة لظن به . ونسبة له إلى خلاف الجود والكرم
والعفو .

وأخرجت الخوارج قتال الأئمة . والخروج عليهم بالسيف في قلب الأمر
بالمعروف . والنهي عن المنكر .

وأخرج أرباب البدع جميعهم بدعهم في قوالب متنوعة . بحسب

تلك البدع .

وأخرج المشركون شركهم في قالب التعظيم لله . وأنه أجل من أن يتقرب إليه
بغير وسائط وشفعاء . وآلهة تقربهم إليه .

* فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في قالب
حق .

والمقصود : أن أهل المكر والحيل المحرمة يخرجون الباطل في القوالب
الشرعية . ويأتون بصور العقود دون حقائقها ومقاصدها .

أقسام هذا النوع : وهذا النوع أنواع .

أحدها : الاحتيال لحل ما هو حرام في الحال ، كالحيل الربوية . وحيلة
التحليل .

الثاني : الاحتيال على حل ما انعقد سبب تحريمه ، فهو صائر إلى التحريم
ولابد . كما إذا علق طلاقها بشرط محقق ، تعليقاً يقع به . ثم أراد منع وقوع
الطلاق عند الشرط فخالعها خلع الحيلة حتى بانث . ثم تزوجها بعد ذلك .

الثالث : الاحتيال على إسقاط ما هو واجب في الحال . كالاختيال على
إسقاط الإنفاق الواجب عليه ، وأداء الدين الواجب ، بأن يملك ماله لزوجته

أو ولده ، فيصير معسرًا ، فلا يجب عليه الإنفاق والأداء . وكمن يدخل عليه رمضان ولا يريد صومه . فيسافر ولا غرض له سوى الفطر . ونحو ذلك .

الرابع : الاحتيال على إسقاط ما انعقد سبب وجوبه ولم يجب ، لكنه صائر إلى الوجوب ، فيحتال حتى يمنع الوجوب ، كالاختيال على إسقاط الزكاة ، بتملكه ماله قبل مضي الحول لبعض أهله . ثم استرجاعه بعد ذلك . وهذا النوع ضربان :

أحدهما : إسقاط حق المسلم قبل وجوبه ، أو انعقاد سببه .

والثاني : إسقاط حق المسلم بعد وجوبه ، أو انعقاد سببه ، كالاختيال على إسقاط الشفعة التي شرعت دفعًا للضرر عن الشريك ، قبل وجوبها أو بعده .

الخامس : الاحتيال على أخذ حقه أو بعضه أو بدله بخيانة ، وله صور كثيرة .

منها : أن يحجده دينه ، كما جحده .

ومنها : أن يخونه في وديعته ، كما خانته .

ومنها : أن يغشه في بيع معيب ، كما غشه هو في بيع معيب .

ومنها : أن يسرق ماله كما سرق ماله .

ومنها : أن يستعمله بأجرة دون أجره مثله ظلمًا وعدوانًا ، أو غرورًا

وخداعًا ، أو عتًا ، فيقدر المستأجر له على مال فيأخذ تمام أجرته .

وهذا النوع يستعمله كثير من أرباب الديوان ، ونظار الوقوف ، والعمال ،

وجباة الفئ والحراج والجزية والصدقة . وانشأهم . فإن كان المال مشتركاً بين المسلمين رتعا وربعا . ورأى أحدهم أن من الغبن أن يفوته شئ منه . ويرى - إن عدل - أن له نصف ذلك المال . ويسعى في السادس . تكملة للثلاثين كما قيل في بعضهم :

له نصف بيت المال فرض مقرر وفي سدس التكميل يسعى ليخلصا
من القوم لا تنهيم عن مرادهم عقوبة سلطان بسوط ولا عصا

* * *

الحبة النافعة والحبة الضارة

(فصل) : من الحبة النافعة : حبة الزوجة وما ملكت يمين الرجل . فإنها معينة على ما شرع الله سبحانه له من النكاح . وملك اليمين . ومن إعفاف الرجل نفسه وأهله . فلا تطمح نفسه إلى سواها من الحرام . ويعفها فلا تطمح نفسها إلى غيره . وكلما كانت الحبة بين الزوجين أتم وأقوى كان المقصود أتم وأكمل . قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(١)

(١) سورة الأعراف : آية ١٨٩ .

وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾ (١) .

وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سئل «من أحب الناس
إليك ؟ فقال : عائشة» . اهـ ولهذا كان مسروق رحمة الله يقول : إذا حدث
عنها :

«حدثني الصديقة بنت الصديق . حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من فوق
سبع سماوات» .

وصح عنه ﷺ أنه قال : «حُبُّ إِيَّيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءِ . وَالطَّيِّبِ .
وَجُعِلَتْ قَرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» .

فلا عيب على الرجل في محبته لأهله . وعشقه لها . إلا إذا شغله ذلك عن
محبة ما هو أنفع له . من محبة الله ورسوله . وزاحم حبه وحبه رسوله . فإن كل
محبة زاحمت محبة الله ورسوله . بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة . وإن
أعانت على محبة الله ورسوله . وكانت من أسباب قوتها . فهي محمودة .
ولذلك كان رسول الله ﷺ يحب الشراب البارد الحلو . ويحب الحلواء
والعسل . ويحب الخيل . وكان أحب الثياب إليه القميص . وكان يحب
الدباء . فهذه المحبة لا تزاحم محبة الله . بل قد تجمع الهم والقلب على التفرغ
لمحبة الله . فهذه محبة طبيعية تتبع نية صاحبها وقصده بفعل ما يحبه .

(١) سورة الروم : آية ٢١ .

فإن نوى به القوة على أمر الله تعالى وطاعته كانت قرينة . وإن فعل ذلك بحكم الطبع والميل المجرد لم يثب ولم يعاقب . وإن فاته درجة من فعله متقرباً به إلى الله .

فالحبة النافعة ثلاثة أنواع : محبة الله ومحبة في الله . ومحبة على ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته .

والحبة الضارة ثلاثة أنواع : المحبة مع الله . ومحبة ما يبغضه الله تعالى . ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها .

فهذه ستة أنواع ، عليها مدار محاب الخلق .

فحبة الله عز وجل أصل المحاب المحمودة ، وأصل الإيمان والتوحيد . والنوعان الآخران تبع لها .

والحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة . والنوعان الآخران تبع لها .

ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك . وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد عن الإخلاص . كانت محبته بعشق الصور أشد . وكلما كان أكثر إخلاصاً وأشد توحيداً ، كان أبعد من عشق الصور . ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها . ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام بإخلاصه : قال تعالى :

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١)

(١) سورة يوسف : آية ٢٤ .

فالسوء : العشق . والفحشاء : الزنا . فالخالص قد خلص حبه لله .
فخلصه الله من فتنة العشق والمشارك قلبه متعلق بغير الله . لم يخلص توحيده وحبه
لله عز وجل .

الفتنة

والفتنة نوعان : فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين - وفتنة الشهوات . وقد
يجمعان للعبد . وقد ينفرد بإحدهما .

فتنة الشبهات :

فتنة الشبهات من ضعف البصيرة . وقلة العلم . ولا سيما إذا اقترن بذلك
فساد القصد . وحصول الهوى . فهناك الفتنة العظمى . والمصيبة الكبرى .
فقل ما شئت في ضلال سوء القصد . الحاكم عليه الهوى لا الهدى . مع
ضعف بصيرته . وقلة علمه بما بعث الله به رسوله . فهو من الذين قال الله تعالى
فيهم :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾^(١) .

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله . فقال :

(١) سورة النجم : آية ٢٣

﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١١) .

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق . وهي فتنة المنافقين . وفتنة أهل البدع . على حسب مراتب بدعهم . فجديعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال .

ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجديد اتباع الرسول . وتحكيمه في دقيق الدين وجنحه ظاهره وباطنه . عقائده وأعماله . حقائقه وشرائعه . فيخلق عنده حقائق الإيمان وشرائع الإسلام . وما يشبهه الله من الصفات والأفعال . والأسماء . وما ينفيه عنه . كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها . ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها . ووجوب أمور الدين . بل هو رسول في كل شيء يحتاج إليه الأمة في العلم والعمل . لا يتلقى إلا عنه . ولا يؤخذ إلا منه . فإحدى كلة دائر على أقواله وأفعاله . وكل ما خرج عنها فهو ضلال . فإذا قلبه على ذلك وأعرض عما سواه . ووزنه بما جاء به الرسول فإن وافقه قبله لا يكون ذلك القائل قاله . بل لموافقته لرسالته . وإن خالفه رده . ولو قال من قاله . فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات . وإن فات ذلك أصاب من فتنتها بحسب ما غاثه منه .

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد . وتارة من نقل كاذب . وتارة

(١) سورة ص : آية ٢٦ .

من حق ثابت خفى على الرجل فلم يظفر به . وتارة من غرض فاسد . وهوى متبع . فهى من عمى فى البصيرة . وفساد فى الإرادة .

فتنة الشهوات :

وهذا هو النوع الثانى من الفتنة . وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين فى قوله :

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَائِقِهِمْ فَأَسْأَمَتْنَهُمْ بِخَلَائِقِكُمْ﴾^(١)

أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها . والخلاق هو النصيب المقدر . ثم قال : ﴿وخصم كالذى خاضوا﴾ فهذه الخواص بالباطل . وهو الشبهات .

فأشار سبحانه فى هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق . والخوض بالباطل . لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به . أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها . والثانى : فسق الأعمال .

فالأول : فساد من جهة الشبهات . والثانى : من جهة الشهوات .

(١) سورة التوبة : آية ٦٩ .

ولهذا كان السلف يقولون «احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه . وصاحب دنيا أعمته دنياه» .

وكانوا يقولون «احذروا فتنة العالم الفاجر . والعابد الجاهل . فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون» .

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأى على الشرع . والهوى على العقل .
فالأول : أصل فتنة الشبهة . والثانى : أصل فتنة الشهوة .

ففتنه الشبهات تدفع باليقين . وفتنة الشهوات تدفع بالصبر . ولذلك جعل سبحانه إمامه الدين منوطة بهذين الأمرين فقال :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(١) .

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

وجمع بينهما أيضاً فى قوله :

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

فتواصوا بالحق الذى يدفع الشبهات . وبالصبر الذى يكف عن الشهوات .
وجمع بينهما فى قوله :

﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾^(٢) .

(١) سورة السجدة «الم» : آية ٢٤ .

(٢) سورة ص : آية ٤٥ .

فالأيدى : القوة والعزائم في ذات الله . والأبصار : البصائر في أمر الله .
وعبارات السلف تدور على ذلك .

قال ابن عباس : «أولى القوة في طاعة الله . والمعرفة بالله» .

وقال العكبي : «أولى القوة في العبادة . والبصر فيها» .

وقال مجاهد : «الأيدى : القوة في طاعة الله . والأبصار : البصر في
الحق» .

وقال سعيد بن جبير : القوة في العمل . والأبصار : بصرهم بما هم فيه من
دينهم» .

وقد جاء في حديث مرسل : «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود
الشبهات . ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات» .

فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة . وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة
الشبهة . والله المستعان .

حصول الغاية المطلوبة

(فصل) إذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين

مطلوبتين . بهي سعادته وفلاحه وكمال . وهما الهدي . والرحمة .

قال الله تعالى عن موسى وفتاه :

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ^(١) .

فجمع له بين الرحمة والعلم . وذلك نظير قول أصحاب الكهف :

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَبِ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ^(٢) .

فإن الرشد هو العلم بما ينفع . والعمل به . والرشد والهدى إذا أفرد كل منهما تضمن الآخر . وإذا قرن أحدهما بالآخر . فالهدى هو العلم بالحق . والرشد هو العمل به وضدهما الغي واتباع الهوى .

وقد يقال الرشد بالضر والشر . قال تعالى :

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ^(٣) .

وقال مؤمنو الجن :

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ^(٤) .

فالرشد يقابل الغي . كما في قوله :

(١) سورة الكهف : آية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف : آية ١٠ .

(٣) سورة الجن : آية ٢١ .

(٤) سورة الجن : آية ١٠ .

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾^(١) .

ويقابل الضر والشر كما تقدم . وذلك لأن الغى سبب لحصول الشر والضر ووقوعهما بصاحبه .

فالضر والشر غاية البغى وثمرته . كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته .

فلهذا يقابل كل منها بنقيضه وسبب نقيضه . فيقابل الهدى بالضلال .

كقوله : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) . وقوله :

﴿إِنْ نَحْرَصْ عَلَىٰ هَٰذَا هُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ﴾^(٣) وهو كثير .

ويقابل بالضلال والعذاب . كقوله :

﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هَٰذَا هَدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(٤) .

فقابل الهدى بالضلال والشقاء .

ويجمع سبحانه بين الهدى والفلاح . والهدى والرحمة . كما يجمع بين

الضلال والشقاء والضلال والعذاب كقوله :

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٦ .

(٢) سورة النحل : آية ٩٣ .

(٣) سورة النحل : آية ٣٧ .

(٤) سورة طه : آية ١٢٣ .

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾^(١) .

فالضلال ضد الهدى . والسعر العذاب . وهو ضد الرحمة .

وقال : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا . وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(٢) . والمقصود : أن من سلم من فتنة الشبهات والشهوات جمع له بين الهدى والرحمة . والهدى والفلاح .

قال تعالى عن أوليائه : ﴿رَبَّنَا لَا تُغْزِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٣) . وقال تعالى : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٤) .
فقوله : ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ مطلق وقوله : ﴿وَهْدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ خاص بأهل اليقين .

وقد أخبر أنه هدى عام لجميع المكلفين . فقال :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾^(٥) .

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس . والبصائر جمع بصيرة .

(١) سورة القمر : آية ٤٧ .

(٢) سورة طه : آية ١٢٤ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٨ .

(٤) سورة الحاثية : آية ٢٠ .

(٥) سورة النجم : آية ٢٣ .

وهى فعلية بمعنى مفعلة . أى مبصرة لمن تبصر . ومنه قوله تعالى :

﴿وَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُورَةً﴾^(١) .

أى مبيّنة موجبة للتبصر . وفعل الإبصار يستعمل لازماً ومتعدّياً . يقال : أبصرته . بمعنى أريته . وأبصرته . بمعنى رأيت . فبصرة فى الآية : بمعنى مرئية . لا بمعنى رائية . والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا فى الآية . وتخبروا فى معناها .

فإنه يقال : بصر به . وأبصره ، فيعدى بالباء تارة . والهمزة تارة . ثم يقال : أبصرته كذا . أى أريته إياه ، كما يقال : بصرته به . وبصر هو به .

فهنا بصيرة . وتبصره . ومبصرة ، فالبصيرة : المبينة التى تبصر . والتبصرة مصدر مثل التذكرة . وسمى بها ما يوجب التبصرة . فيقال : هذه الآية تبصرة ، لكونها آلة التبصرة . وموجبة .

فالقرآن بصيرة وتبصرة . وهدى وشفاء . ورحمة . بمعنى عام . وبمعنى خاص . ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا . فهو هدى للعالمين . وموعظة للمتقين . وهدى للمتقين . وشفاء للعالمين . وشفاء للمؤمنين . وموعظة للعالمين . وموعظة للمتقين ، فهو فى نفسه هدى ورحمة . وشدء وموعظة . فن اهتدى به واتعظ واشتقى ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذى يحصل به الشفاء فهو دواء له بالفعل . وإن لم يستعمله . فهو دواء له بالقوة . وكذلك الهدى .

(١) سورة الإسراء : آية ٥٩ .

فالقُرآن هدى بالفعْل من هتدى به . وبالْقُوّة من لم يهتد به . فإِنما يَهْدِي به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون .

والهدى فى الأصل : مصدر هدى يهدى هدى .

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتدياً . كما فى الأثر «من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله تعالى إلا بعداً» ولكن يسمى هدى . لأن من شأنه أن يهدى .

وهذا أحسن من قول من قال : إنه هدى ؟ بمعنى هاد . فهو مصدر بمعنى الفاعل . كعدل بمعنى العادل . وزور بمعنى الزائر . ورجل صوم أى بمعنى صائم . فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يهدى به .

فالله الهادى . وكتابه الهدى الذى يهدى به على لسان رَسُوْلِهِ ﷺ .

فهنا ثلاثة أشياء : فاعل . وقابل . وآلة .

فالفاعل : هو الله تعالى .

والقابل : قلب العبد .

والآلة : هو الذى يحصل به الهدى . وهو الكتاب المنزل .

والله سبحانه يهدى خلقه هدى . كما يقال : دلهم دلالة . وأرشدهم إرشادا . وبين لهم بيانا .

والمقصود : أن المحل القابل هو قلب العبد المتق . المنيب إلى ربه . الخائف

منه . الذى يبنى رضاه . ويهرب من سخطه . فإذا هداه الله فكأنه وصل
أثر فعله إلى محل قابل . فيتأثر به . هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود
والفعل والقبول . وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه . كما
يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء . فإنه لا يؤثر فيه شيئاً . بل لا يزيده
إلا ضعفاً وفساداً إلى فساد . كما قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ
شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ^(٢) .

فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة . ولعدم آلة الهدى تارة .
ولعدم فعل الفاعل . وهو الهادى تارة . ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند
اجتماع لهذه الأمور الثلاثة .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ . وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا
وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ^(٣) .

فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء . وهو إسماع قلوبهم وإفهامها
ما ينفعها . لعدم قبول المحل . فإنه لا خير فيه . فإن الرجل إنما ينقاد للحق
بالخير الذى فيه . والميل إليه . والطلب له . ومحبة . والحرص عليه . والفرح

(١) سورة التوبة : آية ١٢٤ . ١٢٥ .

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٢ .

(٣) سورة الأنفال : آية ٢٣ .

بالظفر به . وهؤلاء ليس في قلوبهم شئ من ذلك . فوصل الهوى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية . التي لا تمسك ماء . ولا تنبت كلاً ، فلا هي قابلة للماء ولا النبات ، فالماء في نفسه رحمة وحياة . ولكن ليس فيها قبول له .

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله :

﴿وَلَوْ أَسْمِعْتَهُمْ لَتَبْلَوْا بِهِمْ كَبْرًا﴾ .

فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى . وهي الكبر والإعراض . وفساد القصد . فلو فهموا لم يتقادوا . ولم يتبعوا الحق . ولم يعلموا به . فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة . لا هدى توفيق وإرشاد ، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة .

وأما المؤمنون : فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة . فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولأولئك هدى بلا رحمة .

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة .

وأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبر . وذوق طعم الإيمان . ووجدان حلاوته . والفرح والسرور بان هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم . ولما اختلف فيه من الحق بإذنه . فهم يتقلبون في نور هداه . ويمشون به في الناس . ويرون غيرهم متخيراً في الظلمات ، فهم أشد الناس فرحاً بما آتاهم ربهم من الهدى قال تعالى :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١) .

فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضلِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن . وهما اتباع الرسول ، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده . فإن الأمن والعافية والسرور . ولذة القلب ونعيمه وبهجته . وطمأنينته : مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة . والخوف . والهم . والغم . والبلاء . والألم . والقلق : مع الضلال والحيرة . ومثل هذا بمسافرين . أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده ، فسار آمناً مطمئناً . والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه ؟ كما قال تعالى :

﴿قُلْ أُنَادِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَوْفَتَهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى امْتَثِلْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَمَا لِي بِالْهُدَى﴾^(٢) .

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى . هي بحسب هداة ، فكلمها كان نصيبه من الهدى أتم كان حظّه من الرحمة أوفر . وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين . وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر .

وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم . فقال تعالى :

(١) سورة يونس : آية ٥٨ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٧١ .

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(١) .

قال عمر بن الخطاب رضى الله «نعم العبدان . ونعمت العلاوة .

قال البغوى : فالعبدان : الصلاة والرحمة . والعلوة : الهداية .

فبالهدى خلصوا من الضلال . وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب .
وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة . والضالون حصل لهم ضد هذه
الثلاثة : الضلال عن طريق السعادة . والوقوع فى ضد الرحمة من الألم
والعذاب . والذم واللعن . الذى هو ضد الصلاة ولما كان نصيب كل عبد من
الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم رحمة . كما
قال تعالى فى أصحاب رسول ﷺ :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٢) .

وكان الصديق رضى الله عنه من أرحم الأمة . وقد روى عن النبي صلى
ﷺ أنه قال : «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر» رواه الترمذى . وكان أعلم الصحابة
باتفاق الصحابة . كما قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه «وكان أبو بكر رضى
الله عنه أعلمنا به» يعنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم «فجمع الله له بين سعة
العلم والرحمة .

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته . وقد وسع ربنا كل شيء

(١) سورة البقرة : آية ١٥٧ .

(٢) سورة الفتح : آية ٢٩ .

رحمةً وعلماً فوسعت رحمته كل شيء . ونحاط بكل شيء علماً . فهو أرحم
بعباده من الوالدة بولدها . بل هو أرحم بالعبد من نفسه . كما هو أعلم بمصلحة
العبد من نفسه . والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها
ويؤلمها . وينقض حظها من ثوابه . ويبعدها من قربها . وهو يظن أنه ينفعها
ويكرمها . وهذا غاية الجهل والظلم . والإنسان ظلوم جهول . فكم من مكرم
لنفسه بزعمه . وهو لها مهين . ومرفه لها وهو لها متعب . ومعطى لها بعض غرضها
ولذتها . وقد حال بينها وبين جميع لذاتها . فلا علم له بمصالحها التي هي
مصلحتها . ولا رحمة عنده لها . فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه . فقد
بخسها حظها . وأضاع حقها . وعطل مصالحها . وباع نعيمها الباقي . ولذتها
الدائمة الكاملة . بلذة فانية مشوبة بالتنقيص . إنما هي كأضغاث أحلام
أو كطيف زار في المنام . وليس هذا العجيب من شأنه . وقد فقد نصيبه من
الهدى والرحمة . فلو هدى ورحم لكان شأنه غير هذا الشأن . ولكن الرب
تعالى أعلم بالحل الذي يصلح للهدى والرحمة . فهو الذي يؤتيها العبد . كما قال
عن عبده الخضر :

﴿فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا
علماً﴾ (١)

﴿ربنا آتانا من لذك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً﴾ (٢)

(١) سورة الكهف : آية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف : آية ١٠ .

تلاعب الشيطان بالأمة الغضبية وهم اليهود

قال تعالى في حقهم ﴿بَسْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ (١).

وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «اليهود مغضوب عليهم . والنصارى ضالون» .

فأول تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبينا . وقرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه . فلما جاوزوا البحر رأوا أقوامًا يعكفون على أصنام لهم فقالوا :

«يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة» .

فقال لهم موسى عليه السلام :

﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ . وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

فأي جهل فوق هذا ؟ والعهد قريب . وإهلاك المشركين أمامهم . برأى

(١) سورة البقرة : آية ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٣٨ . ١٣٩ .

من عيونهم . فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا . فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا وكيف يكون إلا له مجعولاً ؟ فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه . والمجعول مربوب مصنوع ، فيستحيل أن يكون إلهًا .

وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إله مجعول ، فكل من اتخذ إلهًا غير الله فقد اتخذ إلهًا مجعولاً .

وقد ثبت عن النبي ﷺ «أنه كان في بعض غزواته . فروا بشجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم . يسمونها ذات أنواط ، فقال بعضهم : يا رسول الله . اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال الله أكبر . قلت كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة . ثم قال : لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» ا.هـ.

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة وكيده لهم :

أنهم قيل لهم . وهم مع نبيهم . والوحي ينزل عليه من الله تعالى .
﴿ادخلوا هذه القرية﴾^(١) .

قال قتادة : وابن زيد . والسدى . وابن جرير وغيرهم : هي قرية

(١) سورة البقرة : آية ٥٨ .

بييت المقدس : «فكّلوا منها حيث شئتم رغدا» أى : هنيئا واسعا . «وادخلوا الباب سجدا» قال السدى : هو باب من أبواب بيت المقدس . وكذلك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنها . قال : والسجود بمعنى الركوع . وأصل السجود : الانحناء لمن تعظمه . فكل منحن لشيء تعظيماً له فهو ساجد . قاله ابن جرير وغيره .

قلت : وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام . أحدهما لصاحبه من السجود المحرم . وفيه نهى صريح عن النبي ﷺ .

ثم قيل لهم «قولوا حطة» .

أى حط عنا خطايانا . هذا قول الحسن . وقتادة . وعطاء .

وقال عكرمة وغيره : أى قولوا : «لا إله إلا الله» وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التى تحط بها الخطايا . وهى كلمة التوحيد .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس «أمروا بالاستغفار» وعلى القولين : فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار . وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم . فتلاعب الشيطان بهم . فبدلوا قولاً غير الذى قيل لهم . وفعلوا غير الذى أمروا به .

فروى البخارى فى صحيحه ومسلم أيضاً . من حديث همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة . نغفر لكم

خطاياكم . فبدنوا . فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم . وقالوا : حبة في شعرة . فبدلوا القول والفعل معاً . فأنزل الله عليهم رجلاً من السماء .

قال أبو العالية : هو الغضب . وقال ابن زيد : هو الطاعون .

وعلى هذا فالطاعون بالرصد لمن بدل دين الله قولاً وعملاً .

ومن تلاعب الشيطان بهم :

أنهم يزعمون أن الفقهاء إذا أحلوا لهم الشيء صار حلالاً . وإذا حرموه صار حراماً . وإن كان نص التوراة بخلافه .

وهذا تجويز منهم لنسخهم ما شاء في شريعة التوراة ، فحجروا على الرب تعالى وتقدس أن ينسخ ما يريد من شريعة . وجوزوا ذلك لأخبارهم وعلمائهم . كما تكبر إبليس أن يسجد لآدم . ورأى أن ذلك يغض منه . ثم رضى أن يكون قواداً لكل عاص وفاسق .

وكما أنى عباد الأصنام أن يكون النبي المرسل إليهم بشراً . ثم رضوا أن يكون إلههم ومعبودهم حجراً .

وكما نزهت النصارى بطاركهم عن الولد والصاحبة . ولم يتحاشوا من نسبة ذلك إلى الله سبحانه وتعالى .

وكما نزهت الفرعونية من الجهمية الرب سبحانه أن يكون مستويًا على
عرشه . لتلا يلزم الحصر . ثم جعلوه سبحانه في الآبار والحانات . وأجواف
الحيوانات .

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية :

أنهم إذا رأوا الأمر أو النهي مما أمروا به أو نهوا عنه شاقًا عليهم ، طلبوا
التخلص منه بوجه الحيل ، فإن أعيتهم الحيل قالوا : هذا كان علينا لما كان لنا
الملك والرياسة .

فمن ذلك : أنهم إذا أقام أخوان في موضع واحد ، ومات أحدهما ولم
يعقب ولدًا فلا تخرج امرأة الميت إلى رجل أجنبي ، بل ولد حميها ينكحها .
وأول ولد ممن ينكحها ينسب إلى أخيه الدارج ، فإن أبي أن ينكحها خرجت
مشتكية منه إلى مشيخة قومه ، تقول : قد أبي ابن حمى أن يستبق اسمًا لأخيه
في إسرائيل ، ولم يرد نكاحي ، فيحضره الحاكم هناك ، ويكلفه أن يقف
ويقول : ما أردت نكاحها ، فتناول المرأة نعله فتخرجها من رجله ، وتمسكها
بيدها وتبصق في وجهه ، وتنادى عليه : كذا فليصنع بالرجل الذي لا يبني بيت
أخيه ، ويدعى فيما بعد بالمخلوع النعل ويدعى بنوه بأبناء مخلوع النعل .

هذا كله مفترض عليهم فيما يزعمون في التوراة .

وهكذا تلاعب الشيطان بهذه الأمة . كما تلاعب بالنصارى فى عقائدهم
وقولهم الله ثلاثة . وتآلبهم لعيسى عليه السلام وهو برىء منهم .

ودائمًا يتلاعب الشيطان بالإنسان فيقويه ويضريه حتى يضل ويذل أمام
الهوى والنفس والدنيا ، كما أضل جمعًا كبيرًا من المسلمين فى زماننا فأنساهم
ذكر الله . مما أوجده فى حياتنا اليومية من أفلام ساقطة وأغان خليعة . وشرب .
ورقص ... الخ ..

فلو أدرك الإنسان العاقل مصائد الشيطان وألعيه لما وقع فيها . ولكنه
تناساه وتناساه . فظهرت أمامه الدنيا والشهوة . ففسا قلبه ، فكان من
الغاوين ..

نسأل الله أن يشبث قلوبنا على دينه ، وأن يختم لنا بحسن الختام .. إنه على ما
يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، نعم المولى . ونعم النصير ..
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبراهيم مُحَمَّد الجَمَل

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	دراسة وتقدسم
٧	العلم فى القرن العاشر
٩	جهلة الصوفية فى هذا القرن
١٤	الكتاب الذى بن أيدنا
١٥	ابن غانم المقدسى
١٧	هذا الكتاب
٢٥	الطريقة السليمة لقراءة القرآن
٢٦	الغناء فى الشرع الإسلامى
٣٤	تحذير النفس من الغناء
٤٤	فصل فى ذكر الأدلة على كراهة الغناء والمنع منه
٥١	حالة المغنى
٥٢	الشبه التى تتعلق بالغناء
٦٢	الوجسد
٦٥	بعض الحجج والرد عليها
٦٨	المتصوفة وحبائل الشيطان

الصفحة	الموضوع
٧٧	قوة المجاهدة وضعفها
٧٨	التوبة والبكاء
٧٨	تلاعب المرضى
٨٠	مكيدة التحليل
٨٢	الحيل والمكر والخداع
١٠٢	أقسام الحيل
١١٣	نوع من الحيل
١١٨	الحبة النافعة والحبة الضارة
١٢١	الفتنة
١٢١	فتنة الشبهات
١٢٣	فتنة الشهوات
١٢٥	حصول الغاية المطلوبة
١٣٦	تلاعب الشيطان بالأمة الغضبية وهم اليهود

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب: ٤٧٧ ١٩٨٣
 رقم الدوى: ١١ - ١٣٤٠ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ شارع - شبرا مصر

مكتبة القرآن

للطبوع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفلنساوى - بولاق
القاهرة - ت ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

14
116

Bibliotheca Alexandrina



0422543

١١٠ قرش